

الفصل الخامس

المقاصد الكبرى

لآيات القصص

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تُلَفِّرُوا فِيهِ كِبْرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ .

[الشورى: ١٣]

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

[فصلت: ٤٣]

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[يوسف: ١١١]

«هذا المنهج الإلهي، الذي يمثله "الإسلام" في صورته النهائية، كما جاء بها محمد ﷺ، لا يتحقق في الأرض، وفي دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله. لا يتحقق بكلمة: (كن) الإلهية، مباشرة لحظة تنزله. ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه. ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب.

إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر. تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك .. تجاهد الضعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى .. وتبلغ - بعد ذلك كله - من تحقيق هذا المنهج، إلى الحد الذي تطيقه فطرة البشر، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي».

أ. سيد قطب، هذا الدين.

مقدمة

في هذا الفصل بيّنا أن آيات القصاص لها رسالة مفادها أن هذا الدين قاد حركة تصحيح تاريخية .. حركة تصحيح انحرافات مختلفة ليرد البشرية إلى الوضع الصحيح .. وضع رباني له شاهده في الفطرة. وأن الرسل والأنبياء ثبتوا ما عندهم - كأصل أصيل - لا يجوز لهم ولا لأصحابهم التراجع عنه قيد أنملة. ثم كان الصراع مع المشركين .. وعظماً ومجادلةً .. وبيئاتاً وإفهاماً .. وتحدياً وإشهاداً .. وأحياناً قتالاً وجهاداً .. لإقرار الحق المجرد لا "للتعايش مع الانحراف"، ولا "للوسطية بين الإيمان والكفر وبين الحق والباطل وبين الخير والشر" ..

وفي هذا السياق كانت مقاصد القصاص:

المقصد الأول:

بيان وتعليم أن هذا الدين جاء ليواجه واقعاً منحرفاً فلم يتصالح مع الانحراف بل واجهه وواجه أصله من الشرك والبعد عن التوحيد، وأن هذا الدين هو أداة مواجهة الظلم والطغيان والانحراف في أي جيل؛ فهو دين جاد وواقعي، وأنه يخاطب بهذا القصاص كل جيل إلى قيام الساعة للقيام بالحق ومدافعة الباطل، وأنهم في هذه المواجهة صفة متكررة للإيمان ومعلومة العاقبة، وفي هذا جاء الإيناس بقصاص الأولين.

المقصد الثاني:

وهو العبرة في أخذه تعالى وشدة بأسه لأعدائه ليتعظ به من خلفهم، وبقاء العبرة والعظة إلى قيام الساعة ودخول كل واقع بعد نزول القرآن تحت هذا الخطاب، ويخوف تعالى عباده بهذا .. فقد جعلت وقائعه تعالى بأعدائه مثلاً ليعتبر بها من بعدهم، وجعل تعالى أعداءه أئمة في الكفر والعذاب يُحذّر الخلق من مصيرهم .. على وجه فردي لكل ظالم، أو على وجه جماعي كأمم وشعوب أو قري؛ فالعبرة باقية إلى قيام الساعة أن يحل بالمخاطبين بهذا الكتاب في كل وقت ما حل بالسالفين.

المقصد الثالث:

وهو سنته تعالى في تقدير الصراع بين الحق والباطل لدفع الباطل وإزالته من الحياة أو كبتة وقمعه وإذلاله لئلا تفسد الحياة ..

وأن هذا مقدر لإصلاح الحياة، وأن الله تعالى لا يترك الحياة ليتفرد بها الكفار على سبيل الدوام، هذا لا يكون، لأن الله تعالى يدفع الكفر بالإسلام، ويدفع الباطل بالحق، فلن يترك تعالى الأرض للباطل ويدع الحق دائماً مستضعفاً لا تقوم له قائمة، هذا لا يكون، فهذه أمنية الباطل دوماً، لفزعه من الحق وبغضه له، وقد وعد تعالى بأنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وبعد كل حين عندما تكاد الأرض تتمحض للباطل حتى يصبح الحق غريباً بل شاذاً عن الحياة! وكلما ظن الباطل استقرار الأمر والقوة والقيادة له .. دفعه الله تعالى بالحق وقدر للحق من يقوم به وقدر للباطل من يذله ويدفعه .. ويكون هذا الحين هو حين إيدان الله تعالى بظهور آخر للحق من خلال الصراع المقدر والمعتمد مع جميع الرسل وورثتهم.

المقصد الرابع:

عَظَمَ حجم التركة التي نحلها اليوم وأنها نتيجة ومحصلة معاناة وجهد ونضال وشهداء وهاجم ودماء ودموع وآلام وهجرة وصبر وأذى وجهد عظيم وجهاد قام به المؤمنون منذ فجر التاريخ إلى أصحاب محمد ﷺ إلى من بعدهم خلال التاريخ الإسلامي إلى السنين القريبة .. من أجل توصيل هذا الخير لنا ولمن بعدنا، فنعرف حجم الأمانة وضخامة الحمل فلا نخون بل نقدر للأمور قدرها لإيصال هذا الخير كما هو وبلا تزوير.

مع سمو التركة وأنها إرث جميع الأنبياء والقيم التي حملوها .. نحن اليوم المتحدثون باسمهم جميعاً عبر حملنا لهذا الدين، فإن تركناه استبدلنا الله تعالى بمن يحمل دينه ويمضي به.

المقصد الخامس:

وهو الارتباط بين الواقع البشري من ذنب ومعصية وانحراف أو طاعة واستقامة، وبين الواقع الكوني من حوله .. وكذلك الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

الارتباط بين الأفعال البشرية، والانحراف والاستقامة، وبين الأحداث الكونية من رخاء وخصب أو قحط وجذب .. ومن أمن وسعة أو خوف وجوع .. ومن عافية وأمان أو أخذ بصعق أو ريح أو خسف أو غرق ..

وأنه لا انفصال بين هذه الأمور وبين الواقع البشري ..

وأن هذه هي الحقيقة التي يقرها الله تعالى في كتابه .. وقد تلقاها المؤمن مستيقناً بها وشاعراً بها .. وعلى أساسها يزن الأمور ويخاف من الذنوب .. كالمؤمن المذكور في سورة الكهف وكمؤمن آل فرعون.

وأن الكافر يغفل عن هذه الأمور ولا يعتبر ممن مضى .. وأن عنده انفصال بين واقعه وفعله هو وقومه ومن على شاكلته وبين ما يصيبه هو وأمته من آفات أرضية أو سماوية في أي مجال من مجالات الحياة: اقتصادي أو سياسي أو أمراض أو فقر أو غيره ..

وأن المؤمن منذ البداية يدرك هذه الحقيقة من مبادئها بخلاف الغارق في الضلال والظلمات جاهلاً بأيام الله تعالى.

ولهذا يدرك المؤمن قيمة الطاعة كما يدرك خطورة الذنب على الخلق كله وعلى الحياة من حوله .. بخلاف من لا حس له من الكفار كالدواب والبهائم التي لا تعقل .. بل قد ورد في السنة إحساس وشعور وإدراك المخلوقات من الدواب وغيرها لخطورة الذنب وإشفاقها منه بخلاف الكافر الذي هو أضل منها.

مع بيان هذه الحقيقة التي أوضحها ابن القيم وابن عبد الوهاب:

يقول ابن القيم في استمرار العظة بقصص السابقين وبقاء دلالاته لوجود وارث لكل قوم حكى الله عنهم سواء من المؤمنين أو من الكفار، وإن كان سياق كلامه في شأن الكفار:

«والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنون في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن

لهم كناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان^(١).

ويقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب عن أهمية القصاص بما ذكره عن السلف فقال:

«وقال بعض السلف: القصاص جنود الله، يعني: أن المعاند لا يقدر يردها»^(٢).

وقد قسمنا القصاص إلى ثلاث مراحل:

١- قصص لمرحلة ما قبل النبي صلى الله عليه وسلم من قصص الأنبياء والمؤمنين معهم.

٢- القصاص الذي يروي مشاهد ومواجهات النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه في مرحلة وجوده بمكة.

٣- القصاص المرتبط بأحداث المدينة.

وتبعتنا القصاص في جميع هذه المراحل طلباً لفهم طبيعة حركة هذا الدين ومواجهاته .. وأنه دين حي وواقعي ومتحرك وفعال ..

وقد يتكرر المغزى في الجميع ولكن التبع يفيد علماً، ويوقع العين على ملاحظات هامة لهذا الواقع المعاصر.

* * *

وفي هذا الفصل كان الجهد هو استعراض القصاص لبيان هذه الحقائق واستقراؤها من الكتاب العزيز وذلك لمعرفة المقاصد العامة للقصاص لا لمجرد الوقوف على بعض النكات العلمية أو البلاغية الجميلة في كتاب الله تعالى - مع كثرتها وروعيتها - مع الغفلة عما سبق القصاص من أجله ..

وجهدنا في ذلك - مع الفهم عن الله تعالى - هو إحياء الأمة وتغيير وتصحيح واقع المسلمين واستنهاض همهم للحركة بهذا الدين .. واستنهاض البعد الجماعي في هذا الدين وذلك للربط بين العلم والعمل وبين المعرفة والحركة ..

والسعي للتمكين المنشود لهذا الدين من خلال عصبه تعمل بما عملت وتخطو على خطو من سبق .. خير انبرية .. الأنبياء.

والله تعالى من وراء القصد ..

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٢) هكذا بالأصل، مختصر سيرة الرسول، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ج ١، ص ٧.

المقصد الأول

بيان وتعليم أن هذا الدين جاد وواقعي ومواجه للانحراف

وأنه يخاطب بهذا القصص كل جيل الى قيام الساعة للقيام بالحق ومدافعة الباطل

وأنهم في هذه المواجهة صفحة متكررة للإيمان ومعلومة العاقبة

وفي هذا جاء الإيناس بقصص الأولين

وما سنعرضه هو استقراء لهذه الحقيقة المذكورة أولاً لأنها أصل الأمر، ومنها تظهر وتنتج بقية المقاصد. ونذكر هنا قبل الدخول في القصص كلمة ابن القيم - رحمه الله تعالى - ليكون للقصص أثره الباقي، يقول رحمه الله:

«والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنون في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان»^(١).

ونذكر هنا عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أهمية القصص بما ذكره عن السلف فقال:

«وقال بعض السلف: القصص جنود الله، يعني: أن المعاند لا يقدر يردّها»^(٢).

ويقول: «واعرف ما قص أهل العلم من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وقومه وما جرى له معهم في مكة وما جرى له في المدينة، واعرف ما قص العلماء عن أصحابه وأحوالهم وأعمالهم لعلك أن تعرف الإسلام والكفر فإن الإسلام اليوم غريب وأكثر الناس لا يميز بينه وبين الكفر وذلك هو الهلاك الذي لا يرجى معه فلاح»^(٣).

ويقول: «ولما ذكر القصص في سورة الشعراء ختم كل قصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فقص الله سبحانه ما قص لأجلنا كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾»^(٤).

(١) مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٢) هكذا بالأصل، مختصر سيرة الرسول، ج ١، ص ٧.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٧.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٩.

ونفس الأمر في سورة القمر؛ فبعدهما يقص الله تعالى قصة من قصص من أخذهم يسأل تعالى المعاصرين زمن الخطاب ومن بعدهم إلى يومنا .. إلى من بعدنا: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟ ﴾، ويسأل تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي؟ ﴾.

كذلك نص القرآن على بقاء العبرة من القصص وأنه ليس أمراً قضي ولا أثر له، بل بعدما يحكى سبحانه في كثير من المواطن قصصاً يذكر بعدها ما يدل على بقاء العبرة:

فبعد أخذ قرى قوم لوط قال تعالى في شأن أخذها: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾، ثم نص تعالى على بقاء العبرة فقال: ﴿ وَمَاهِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣]، يعني: كل ظالم إلى قيام الساعة لا تبعد عنه هذه الحجارة، وهي قريبة منه في كل لحظة حال ظلمه.

وفي الأعراف بعد ما قص مصير المستكبرين ومن أضلوه من المستضعفين قال تعالى في شأنهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾، ثم ذكر تعالى أن هذا المصير معروض لمن سلك نفس السبيل فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، يعني ومثل هذا الجزاء نجزي المجرمين، فكل من اكتسب هذا الوصف كان له هذا المصير.

ثم أكد مرة ثانية مصيرهم فقال: ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾، وأكد كذلك بقاء العبرة فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١].

وبعدما ذكر تعالى أنه كتب على من عبدوا العجل من بني إسرائيل الغضب والذلة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاءٌ لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، قال تعالى بعدها أن هذا على العموم لكل مفترى على الله، والشرك أعظم الافتراء، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وهذا ما فهمه السلف فقالوا في هذه الآية أنها: «ناثلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرشد متصلة من قلبه على كتفيه كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البرادين، وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾، فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل»^(١).

وفي سورة القمر ينص تعالى على أخذ العبرة فيقول: ﴿ وَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾، ويقول: ﴿ وَقَدْ بَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟ ﴾ [القمر: ١٥-١٦].

وفي خاتمة سورة يوسف يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وفي خاتمة القصص في سورة هود يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، يعني: مثل هذا الأخذ يأخذ الله تعالى القرى الظالمة، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقد استدل النبي ﷺ بهذه الآية على عموم المعنى والمأخذ في ظلم الكفر وما دونه، فقال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»^(١).

بل يرتب تعالى على القصص أفراد الله تعالى بالعبادة فيقول معقباً بحرف الفاء للدلالة على أن الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك مسبب عن القصص: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبُهُم مِّنْهُم مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [هود: ١٠٩].

وفيما يلي نستعرض هذا القصد، وهو مواجهة هذا الدين لكل ألوان الانحراف وأنه أداة المواجهة في كل زمان من خلال المؤمنين الذين يكوّنون أمة تواجه انحراف الكفار من خلال الدفع والمواجهة.. ونستعرض هذا المقصد في مراحل القصص الثلاث: قبل النبي ﷺ، وفي مكة، ثم في المدينة.

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٧٢٦، رقم ٤٤٠٩، وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم رقم ٢٥٨٣.

أولاً: استعراض هذا المقصد في قصص الأنبياء والمؤمنين قبل النبي ﷺ

ذكر القرآن قصص الأنبياء والرسل الكرام كنوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى وعيسى وغيرهم مع أهمهم وهم يواجهون قوما مشركين، وأجل الإشارة إلى أنبياء يذكرون أمما كانت مسلمة فيذكرونهم بدينهم بنفس رسالة الرسول السابق كأنباء بني إسرائيل مع قومهم، وتذكيرهم برسالة موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [المائدة: ٤٤].

وذكر القرآن مواقف لأفراد مؤمنين ليسوا رسلاً لكن كانت مواقفهم من الإخلاص والتأثير والصدق والعلم بحيث سجلت في كتاب الله تعالى إلى يوم القيامة كأصحاب البروج، وكفتية الكهف، وكمؤمن آل فرعون، وكسحرة فرعون، وكالمؤمن في يس، وكالرجلين مع موسى وغيرهم، فهذه ثلاثة أنواع لقصص زمن ما قبل رسول الله ﷺ، وأشار سبحانه إلى عظم هذا القصص بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيًا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُنْظَرِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيَةَ ﴾ [يوسف: ٣].

* * *

إن تتبعنا هذا القصص الكريم وجدته يدور حول قاعدة هامة وأساسية هي: مأخذ التأسّي والافتداء.

هذه القاعدة تعرف بالاستقراء وبداهة الأمر، وذلك أن هؤلاء الأنبياء الكرام أرسلوا فجاءوا إلى واقع منحرف عن دين الله تعالى .. انحراف بعيد إلى حد الشرك والولوغ فيه حتى صار بداهة، وصار التوحيد الذي فطر الناس عليه هو الغريب، فجاء الأنبياء والرسل لمواجهة الواقع المنحرف ودعوة الناس وحملهم على الاستقامة على دين الله: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦].

ولم يكتف الرسل بهذا بل مع مواجهتهم للشرك كانوا يأمرون الناس بقيم خلقية وينهونهم عن انحراف خلقي موجود في معاملتهم فطلبوا من الناس التوحيد والقيام بأعمال وأخلاق مبنية على الإيمان والتوحيد، وإصلاح واقعهم المنحرف للاستقامة على أمر الله تعالى.

وهذا الأمر لتكون دعوة الرسل عملية وواقعية إلى حد بعيد، فطلب الرسل من الخلق:

أولاً: إصلاح أساس الانحراف وأصل الاعوجاج وهو الشرك والتعلق بغير الله تعالى وخضوع الحياة لمشرع غير رب العالمين، فنهوا الخلق عن هذا وأمرهم بإفراد الله تعالى بحقوقه الخالصة والعودة بالحياة له تعالى وحده فيخضعوا لشرعه الكريم في كل زمان بحسب ما أمر الله تعالى به في ذلك الزمان.

ثانياً: إصلاح الحياة باستقامتهم على منهج رب العالمين.

فانظر إلى قصة مدين مع شعيب عليه السلام في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء تجدد مع الأمر بالتوحيد الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط والنهي عن بخس الناس أشياءهم وعن أكل أموال الناس بالباطل.

وانظر إلى قصة لوط في جميع مواردّها في الأعراف وهود والشعراء والأنبياء والنمل تجسد القضية قضية خلقية مرتبطة بقبول تحريم الله لها فهي مواجهة لانحراف خلقي مرتبط بانحراف عقدي.

وانظر عموماً إلى سورة الشعراء وفيها إبراز القيم الخلقية التي انحرفت الأمم عنها وجاء الأنبياء لتصحيحها مع التوحيد.. انظر:

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ٦٦ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَذَابَيْنِ ٧١ ﴾ قَالَ هَلْ نَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٧٢ ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣ ﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَاكِدًاكَ يَفْعَلُونَ ٧٤ ﴿ قَالَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥ ﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ٧٦ ﴿ فَأْتَهُمْ عَذَابٌ لِيْ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ٧٧ ﴾ [الشعراء: ٦٦-٧٧].

فهذا صراع على التوحيد، وفي موضع آخر في سورة العنكبوت يصلح تصورهم في موضوع الرزق على أنه أحد أسباب الشرك ويعالج كذلك موضوع البعث:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْفِقُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١ ﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَأَيِّمٌ لَّذِينَ لَا يُعْلَمُونَ ١٢ ﴿ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ١٧ ﴾ وَإِنْ كَفَرُوا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ١٨ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١٩ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ ﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ٢١ ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢١].

ثم نكمل النظر في سورة الشعراء، فمع نوح كان النهي عن الشرك والأمر بالطاعة على وجه الإجمال، فهناك قطعاً أحكام وقيم وخلق مترتب على التوحيد الذي دعاهم إليه:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ١٠٥ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٠٨ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١١٠ ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٠].

والتقوى لترك الشرك^(١)، والطاعة للاستقامة التفصيلية على المنهج الرباني.

وأما هود: ﴿ كَذَّبَتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ ١٢٣ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٢٦ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٧ ﴾ أَتَيْتُونَهُ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ١٢٩ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ رِطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٣١ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامِهِمْ وَبَيْنَ ١٣٣ ﴾ وَحَنَّتْ وَعِيُونَ ١٣٤ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٥].

فمع النهي عن الشرك والأمر بالمجمل بالطاعة كما في قصة نوح أخذ يفصل ببعض التكاليف، بالنهي عن بعض الانحرافات الواقعية التي يعانون منها.

وكذلك مع صالح: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ١٥١ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٥٢ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٥٣ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٥٤ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٥٥ ﴾ أَنْتُمْ كُنْتُمْ فِي مَا هُمْ بِمَاءٍ أَمِينٌ ١٥٦ ﴿

فِي جَنَّتِ وَعَيْبُونَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمَةً ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا فَذَرَيْتُمْ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَشْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿الشعراء: ١٤١-١٥٢﴾، نهى عن الإسراف والرافاهية الصادة عن دين الله تعالى والنهي عن الإفساد الذي اشتهروا به إفسادًا لا صلاح فيه.

ومع لوط قضية خلقية لكن معها وقبلها وأساسها نفس الأمر بالتقوى لتجنب الشرك ثم على أساسها يُحاطَبون: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِوُنَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ أَقَالُوا لَنْ لَمْ تَنْسَهُ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسِيمًا ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٦٠-١٧٥﴾.

ومع شعيب معاملة مالية محرمة ينهاون عنها: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُنَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَتُوفُونَ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِينُوا بِالْغِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْوَالِينَ ﴿الشعراء: ١٧٦-١٨٤﴾.

وفي مواضع أخرى ينص على محرمات أخرى كقطع الطريق ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُوا عَلَيْكُمْ غَيْرَ بِإِذْنِ اللَّهِ غَيْرُهُ، فَدَجَّأَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأُوفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿الأعراف: ٨٥-٨٦﴾.

مع ملاحظة أن كل رسول ذكر بصفة أخوته لقومه عندما ذكر اسم قومه، إلا مدين لم يذكر الأخوة في النسب التي بين شعيب وبينهم لأنه تعالى لم يذكر اسم مدين في هذا الموضع كما ذكره في سور أخرى، لكن ذكر صفة شركهم: (أصحاب الأيكة)، وهنا لا أخوة مع هذا الوصف بل كان عليه السلام قاطعًا للولاء بينه وبين الكفار ككل الأنبياء: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴿٤﴾ أَي: الأنبياء، على أحد القولين: ﴿إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هَذَا بِرٌّ وَإِنَّا بَرٌّ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَذَّبْنَا بِكُورِ بَدَائِئِنَّا وَيَتَنَابَيْتُمْ الْعِدَاةَ وَالْبَعْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وانظر إلى قصة موسى وفرعون وكيف بدأت السورة الكريمة - سورة الشعراء - بهذا النداء:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فَرَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

لقد كانت مواجهة للظلم أمام فرعون الطاغية، وكان الظلم ممارسة لهم عامة ومستقرة حتى صار شعارًا حتى عرف هو وقومه به واشتهروا به حتى إذا قيل: (القوم الظالمين) انصرف الكلام إلى فرعون وقومه.

وواجهه موسى، وقصته طويلة ومكررة في سور كثيرة من كتاب الله تعالى فهي قصة يستشهد بها على وجه الإجمال في مواضع لبيان العبرة في أخذ الله تعالى للمكذبين والمستكبرين، وتفصل أجزاء منها في مواضع آخر ذلك أنها قصة طويلة تتضمن الخروج من الاستعباد، ثم انظر بيان تربية رب العالمين لمن يهبأ لحمل الرسالة كيف ربي في البيت الذي سيواجهه بعد ذلك، وكيف ربي في النعيم والترف ثم تربية أخرى في ظروف قاسية، ثم المواجهة الأولى مع فرعون، ثم المناظرة ثم التحدي فالنصر بالحجة والأدلة، ثم الصبر وموقف الإشهاد العظيم من السحرة ومن قوم موسى المؤمنين في ذلك الزمان على الأذى والقتل، ثم الصبر سنين طوالاً والتحدي للكفار، ثم اليأس من إيمانهم وإيدان الله لهم بالخروج ثم النصر والتمكين على الأرض التي استعبدوا فيها، ثم معالجة هؤلاء ومعالجة آثار الاستعباد في نفوسهم والتي أفرزت خامات بشرية لا تستقيم بسهولة وهي قصة طويلة في البقرة والأعراف وفي طه وغيرها.

ثم معالجة ذريتهم حتى الاستقامة والنصر والتمكين مع يوشع بن نون.

ثم انحرافهم فكان الخروج والذل والتشريد ثم المعالجة حتى النصر والتمكين بالإسلام مرة ثانية مع طالوت في مواجهة جالوت ثم العصر الذهبي لهم مع داود وسليمان ثم الانحراف بعد الانحراف حتى أرسل إليهم أنبياء ليعالجوهم وقد قتلوا منهم من قتلوا .. وهكذا.

لكن يبقى الشاهد في مواجهة موسى عليه السلام أمام ظلم وشرك وانحراف فرعون، ومواجهته كذلك لانحراف قومه بعد ذلك، واستمرار عملية الإصلاح.

* * *

لقد كان الإسلام على مدار التاريخ هو الملجأ الذي يلجأ الناس إليه وهو المعول الذي يهدم به الناس الباطل والظلم بل ويُفرعون به الباطل، فقد اهتز فرعون كثيرًا من موسى رغم أن فرعون كان يُقسّم بعزته لكن الحق أقوى مما يتصور الناس وانظر إلى تلك الآيات:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾

[غافر: ٢٦].

وهل منعه من قتله؟ ولم الاستئذان؟ ولم إبداء الخوف والتبرير لمحاولة قتله؟ ولماذا احتاج للتشويه والكذب الذي يعلم هو أنه كذب؟.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِن الْمَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:

٤١-٤٢].

فإن لم يكن خائفًا فلماذا وعدهم بالقرب؟ كان يكفيه الأجر كأبي عامل له، لكنه لم يستطع أن يخفي خوفه واهتزازه من موسى والحق الذي يحمله.

- خروجه لقومه وخطبته فيهم بعد توالي الآيات المفصلة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ

ءَايَاتٍ مَّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَّجْرِمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمَ يَأْتِيَنَا الرِّجْزُ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَنْ كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزُ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿الأعراف: ١٣٢-١٣٥﴾.

فخاف فرعون من أن يؤمن قومه وأن يحسر تأييد الناس له فقام خائفاً مرعوباً أن يستجيب الناس للحق فخطب فيهم: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَلَّةٍ مَّعَهُ الْمَلَكِيَّةُ مُتَّزِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿الزخرف: ٥١-٥٤﴾.

فالإسلام هو الذي فزع فرعون وهدّ عرشه فهل يصح نزع هذا عن الإسلام وهو الذي جاء لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؟ وهل يجوز تركيع الناس للباطل باسم الإسلام؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

لقد كانت سنة الله قبل موسى عليه السلام أن يهلك الظالمين على وجه الإبادة أما بعده فقد أذن الله تعالى في أمر آخر - مع وجود الأخذ حين يشاء - وهو الأمر بالقتال وهذا لقوله تعالى في سورة القصاص: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿القصاص: ٤٣﴾.

فذكر إهلاك القرون الأولى وهي ما بعد نوح لأن ما قبل نوح كان على الإسلام لقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿الإسراء: ١٧﴾، وقول ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد، وروى الحاكم في المستدرک عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك في قراءة عبد الله: ﴿ كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴿١﴾.

ولا يلتفت إلى ما روي مخالفاً لهذا فهو قول ضعيف كما قال شيخ الإسلام، أما القول الصحيح روايةً الموافقة لنص التنزيل فهو أنهم كانوا على التوحيد.

فكانت الفترة من آدم إلى نوح .. عشرة قرون على التوحيد، ثم الفترة من نوح إلى موسى وُجد الشرك، ومع الرسالات كان الأخذ السهاوي بإهلاك عام لا يُبقي أحداً من الكفار حتى يستأصل دابرتهم، أما بعد موسى فاختلّف الأمر: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿القصاص: ٤٣﴾، وشرع الجهاد ووعد على القتل في سبيل الله الجنة، ونص القرآن أن هذا في الرسالات الثلاث: ﴿ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ ﴿التوبة: ١١١﴾، وذكر تعالى قصة أمره إياهم بدخول الأرض المقدسة - وتوليهم عنها - ثم ذكر قصة طالوت وجالوت في هذا الصدد كمثال لهذا الجهاد وذكر عموماً هذه القاعدة: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴿البقرة: ٢٥١﴾.

لقد واجه الإسلام الأفكار المنحرفة والمفاهيم الخطأ:

﴿ قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أُمُورِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

﴿ وَيَقُولُوا لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآلِئَ آجِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَقُونَ بِهِمْ وَلَكِنِّي أَرَكُمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ (٢١) ﴿ وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٩ - ٣٠].

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا إِيمَانًا قَدِيمًا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧٠) ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَتَشْرَعُونَ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمُ مِنَ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠ - ٧١].

وواجه الشهوة المحرمة في المال بالتصرف المحرم والعلو بالباطل والفساد والإفساد في الأرض هذه الحياة التي اتئمن الناس عليها:

﴿ إِنْ قَدَرُونَ كَاتٍ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبِعَى عَلَيْهِمْ وَعَآيِنَهُ مِنَ الْكُذُوبِ مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ لِنَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٦١) ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَالْخَبْرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٧].

وواجه الشهوة المحرمة في الجسد والاستعلان بالمنكر وقطع الطريق إما لفعل الفاحشة بالمارة، وإما جريمة منفصلة على وجه الحرابة:

﴿ وَلَوْ طَافَ أَلْفٌ مِنْ قَوْمِهِ عَنِ النَّكَرِ لَأَنفَكُوا مِنْهَا لَمَنْ بَغَى النَّكَرَ إِنَّهُ لَشَرٌّ عَلَيْنَ الْإِنْسَانِ ﴾ (٦٨) ﴿ وَإِنِّي لَأَخْلَقُ لَكُمْ لُحُومًا تَرْغَبُونَ وَأَعْمَلُ لَكُمْ فِيهَا زُجُجًا تَلْبَسُونَ وَأَعْمَلُ لَكُمْ فِيهَا جِبَالَ مُدْبِرًا تَلْوُونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَلْمِزْكُمْ فِيهَا مِنْكُمْ فَلِي اللَّعْنَةُ وَمَنْ آمَنَ بِمَا آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ مِن بَيْنِ يَدَيْ هَذِهِ فَلَا حَسَابَ عَلَيْهِمْ لِمُؤْمِنًا يَلْمِزُوكَ فِي مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكِتَابِ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي لَا يُؤْمِنُ أَتَمَنَّنَا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِنَّهُ لَكَايُومٌ ﴿ ٦٩ ﴾ ﴿ وَإِنِّي لَأَخْلَقُ لَكُمْ لُحُومًا تَرْغَبُونَ وَأَعْمَلُ لَكُمْ فِيهَا زُجُجًا تَلْبَسُونَ وَأَعْمَلُ لَكُمْ فِيهَا جِبَالَ مُدْبِرًا تَلْوُونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَلْمِزْكُمْ فِيهَا مِنْكُمْ فَلِي اللَّعْنَةُ وَمَنْ آمَنَ بِمَا آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ مِن بَيْنِ يَدَيْ هَذِهِ فَلَا حَسَابَ عَلَيْهِمْ لِمُؤْمِنًا يَلْمِزُوكَ فِي مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكِتَابِ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي لَا يُؤْمِنُ أَتَمَنَّنَا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِنَّهُ لَكَايُومٌ ﴾ [النمل: ٢٨ - ٢٩].

وواجه أوضاع الاستبداد:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿ ١٥ ﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿ ١٦ ﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿ ١٧ ﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَرَكَ ﴿ ١٨ ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿ ١٩ ﴾ [النازعات: ١٥ - ١٩]، ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ ﴿ ١٠ ﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَفَقَهُونَ ﴿ ١١ ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

وواجه أوضاع الظلم التي تكون مع الاستبداد والتفرقة بين طبقات أو أعراق في المجتمع:

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٢ ﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ ٣ ﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُ هُمْ وَسِتْنَىٰ. وَنَسَىٰ حَيْثُ وَوَدَّعَىٰ رَبَّهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ ٤ ﴾ وَرَبُّكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿ ٥ ﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿ ٦ ﴾ [القصص: ٢ - ٦]، ﴿ فَأَتَىٰ فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿الشعراء: ١٦ - ١٧﴾.

وواجه النسيان لرب العالمين والاستخفاف بشأنه تعالى:

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُمِ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿هود: ٩٢﴾.﴾

وواجه كل ألوان الانحراف:

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿هود: ٩٠﴾.﴾

﴿ وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعَفِّكُمْ مِمَّا حَسَنَّا إِلَيْكَ آجِلٍ مَسْئَى يَوْمِكُمْ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٢٤﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿هود: ٣ - ٤﴾.﴾

﴿ وَتَقَوْمٌ اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَنَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

مُجْرِمِينَ ﴿هود: ٥٢﴾.﴾

فهذا استغفار وتوبة عامة من الشرك ومن جميع الانحرافات.

إن الناس اليوم يناضل من يناضل منهم لتصحيح أوضاعهم بعيداً عن الدين، لكن يخرجون من استعباد إلهي نوع آخر من الاستعباد بطلاء الحرية ولا يخرجون إلى النور الحقيقي الذي تجري فيه الحياة على استقامة وتحاز به الآخرة..

وقد يُتَفَهَّم موقفهم لما زور الناس من دين الله وجعلوه تابعاً لأهواء السادة ومبرراً للشرعية الطغاة، ولم يواجهوا به الانحراف الموجود كما واجه به رسل الله الكرام ما في زمانهم من انحرافات كما أوضحنا.. لكن ليس هذا هو دين الله.

ليس هذا ما حمله موسى إلى فرعون حتى اهتز عرشه.

ولا ما حمله إبراهيم فكسر أصنام قومه ونقض الأمر من أساسه وقام برجة وهزة عنيفة لا تناسب أصحاب "التعايش" اليوم.. مما دفعهم إلى مقابلته بهزة مقابلة لحفظ هيبة أوضاعهم المنحرفة، فأيد الله تعالى سعي إبراهيم وأبطل سعيهم وأدال عليهم الدولة.

وليس هذا ما حمله شعيب لتغيير انحراف عقدي ومالي وحرابة وإفساد وقطع طريق الناس.

وليس هذا ما حمله هود للنهي عن البطش بالخلق، وعن العبث والغرور مع الانحراف العقدي.

وكذلك صالح وهو يقابل المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون بمعنى فساد لا شوب فيه لصلاح، يقول الإمام النسفي: «﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالظلم والكفر ولا يصلحون بالإيمان والعدل، والمعنى أن فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح»^(١).

ولا انتهاه لوط لقومه وإعلانه المدوي دائماً حتى أرقههم.

وهكذا جميع الأنبياء والمؤمنين..

لم يبحث الرسل عن صيغة "للتعايش" على إقرار أوضاع الظلم والانحراف عن هذا الدين، ولم يبحثوا عن "الوسطية المزيفة"^(١) التي تضمن لهم عدم غضب قومهم عليهم، وتعطيهم فرصة للاستمرار في الدعوة وغيرها من مبررات المزورين في واقعنا المعاصر.

فقد كان موقف إبراهيم: التحنف، وهو الميل عن الشرك والاحتياط فيه والتشديد فيه وفي تجنبه وحماية جناب التوحيد.. هذا الموقف هو موقف جميع الرسل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤].

هذا ليس موقفًا عارضًا أو خاصًا بإبراهيم فقط بل هو موقف ثابت لجميع الأنبياء والرسل: فقله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هم الأنبياء - على أحد القولين - فهو موقف عام لجميع الأنبياء لأنه أصل دين الإسلام فمن لم يفهم هذا الموقف فلماذا يتصدر لحمل هذا الدين والدعوة إليه وعرضه عرضًا مزورًا..

(١) الوسطية صفة لهذا الدين العظيم في عقائده وأحكامه في أصول الدين وفروعه .. وهي حق.

والتعايش صفة كذلك فيه لقبوله وجود أصحاب عقائد أخرى في المجتمعات التي يحكمها الإسلام بشروط يضعها هذا الدين منها علو وسيادة منحه الله تعالى على هذا المجتمع، وشروط يضعها على غير المسلمين لحماية المجتمع المسلم واستقرار منهجه والحفاظ على هويته، وكذلك معاملته للكفار خارج ديار الإسلام بنظم وقوانين وضعها الإسلام ومنها دعوتهم للحق بالحوار والمجادلة الحسنة مع الحفاظ على هذا الدين وعلى الأمة وعلى حق الإسلام في نشر منهجه.

لكن هذان المصطلحان يراد بهما اليوم أمورٌ مزيفة من المهزومين أمام الغرب الصليبي والملحد والمترع بالابديز والشذوذ والإباحية والظلم والجشع والوحشية التي يأنف منها الحيوان، والاحتقار والحقد للإسلام وأهله.

والذي يعنى به أصحاب هذه الدعوات هو تنازل المسلمين عما معهم من عقائد وتنازل أهل السنة كذلك عن عقائدهم إرضاء لغير المسلمين وللطوائف المنحرفة .. ثم يقوم المسلمون بعد هذا التنازل باستجداء الرضا من الطرف الآخر الذي يرفض التنازل عن شيء من الباطل الذي يحمله!! وقمة ما يتنازل به الباطل هو إعلانه أنه يرضى عن هذا التوجه ويشجع هذا التنازل ليقبل المسلمين ..!!! (وهذا هو التوجه الذي نشير إلى رفضه).

وأصحاب هذه الدعوات يضعون عقائد وفرائض قطعية للنقاش، لتخضع لآراء الناس، وبحسب ميولهم يقررونها، ولو رفض المعاصرون من المسلمين بعضها فلهم هذا كالولاء والبراء وتحديد هوية الأمة والخضوع لحاكمية الشريعة أو التهاون في شرك النسك ومظاهره وما يحفه من البدع من القباب والأضرحة والمشاهد!! وفرائض كالحجاب وغيره .. كل هذا استجداء لثناء الكفار الذين يسميهم الله تعالى نجس ﴿يَكْفُرُ بِهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ نجس﴾ [التوبة: ٢٨].

وكل هذا بدلاً من تعليم الناس دينهم الحق وأن يسمعوا ويطيعوا لربهم وأن يمضوا على نهج الأنبياء قبلهم.

إن الفريضة العظمى التي يُطالب بها المسلمون ليست هي التعايش أو التنازل للكفار عن عقائدهم تحت مسمى الوسطية .. إنما الفريضة العظمى هي قبول دين الله تعالى كما تركه محمد بن عبد الله ﷺ وإقامته وأن يجتهد المسلمون بأصول الاجتهاد الموروثة لاستنباط الأحكام لما جَدَّ لهم من قضايا ..

كذلك يجب أن نعلم أن كل هذا الهراء نابع من ضعف المسلمين وليس أن المعاصرين قد اكتشفوا في الإسلام شيئاً لم يعرفه أصحاب محمد ﷺ ..

إن النقطة الجديرة بالاهتمام هي علاج ضعف المسلمين وعلاج جهلهم بهذا الدين العظيم وأن يعلموا هذه الحقيقة: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمْزِلَ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

كذلك سورة "قل يأيها الكافرون" ليست خاصة بهذه الأمة بل هي أحد نوعي الإخلاص، والنوع الثاني هو ما عبرت عنه سورة "قل هو الله أحد". الأول: التوحيد في العمل والإرادة والقصد، وفيه كانت الخصومة بين الأنبياء وأممهم. والثاني: هو التوحيد في العلم والمعرفة والإقرار وهو لازم للعمل والإرادة.

وبها يكون التوحيد والإسلام الذي عليه جميع الرسل، ولا يكون المسلم مسلماً إلا باستيفاء هذين الأصلين في كل زمان ومكان، ومع أي رسول، والأنبياء جميعهم مسلمون بهذا الاعتبار.

يقول شيخ الإسلام: «ودين الإسلام هو دين الأولين والآخريين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، عام في كل زمان ومكان؛ فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له قال الله تعالى عن نوح: ﴿يَقُولُ إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَادَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمْرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ مَأْمَنُوا بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَسْئُولِينَ﴾، وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَقَّفْ مُسْلِمًا وَالْحَقْفَى بِالصَّالِحِينَ﴾، وقالت بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِيبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾، وقال الحواريون ﴿مَأْمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»^(١).

كذلك موقفه في إعلان براءته وإعلان تحنفه في سورة "الأنعام" وذكر بعدها الرسل الذين أرسلوا بعده وقبله وأنهم على سبيل واحد ثم أمر بالافتداء بهذا الطريق: ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْمَرُ فِي بَرِّي وَمِمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ إِي وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

ثم ذكر بعدها أن الإقرار والربوبية وحده لا يكفي، وأنه لابد من استيفاء جانب التعبد فقال تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١-٨٢]، والظلم هنا هو الشرك في العبادة كما فسره رسول الله ﷺ.

ثم ذكر تعالى الأنبياء من ذريته وأشار إلى الأنبياء قبله فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٤-٧٨].

ثم ذكر تعالى عن كل هؤلاء أنهم على نفس موقف التحنّف الذي أعلنه إبراهيم وأمر بالاعتداء بهم في هذا فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ هَدَىٰ اللَّهُ يَدَيَّ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَكَوْا شُرَكَاءَ لِحَيْطٍ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوَّةَ ۗ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِنَهُمْ أَقْبَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: ٨٨-٩٠].

نكرر لم يبحث الرسل عن صيغة "مقبولة" للآخرين بحيث يساوم على هذا الدين وينظر إلى مدى قبول الناس لدين الله ولأمره وأحكامه، فيحذف منه ما لا يروق المرحلة الحضارية التي يواجهها، ويعامل الدين على أنه تابع لأوضاع الناس يرقع لهم بعض ما يرتضون وبعد مساومات!. ولم يُخضع الرسل الأحكام التي تلقوها من الله تعالى حكماً حكماً للناس لينظروا في استفتاء أو انتخاب إلى مدى قبولهم له واقتناعهم به!.

لقد كان عمل الرسل أنهم «ثبّتوا» دين الله أصلاً وأحكاماً على أنه الخط الثابت والأصل الأصيل، وعلى الناس أن يغيروا حياتهم ليقبموها على دين الله تعالى، ولم يسمحوا ولا يجوز لهم - وحاشاهم - ولا لأحد أن يساوم على حكم واحد أو أمر واحد ليتغير دين الله ليوافق أمرجة الناس.

انظر إلى ما نعمته مدين على شعيب: ﴿قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ أَنْتَ لَأَنَّ الْحَلِيلَةَ الرَّشِيدَ ﴿٨٧﴾ [هود: ٨٧]، يعني: أننا ممنوعون بسبب دينك - وعلامته الظاهرة الصلاة الحسنة التي كان يصلها - أن نكون أحراراً في نسكنا وتعبدنا، أو أن نكون أحراراً في التصرفات المالية، وتريد تقييدنا في تصرفاتنا بهذه الشريعة؟.

وانظر إلى قوم لوط وإشارات بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ بِئِلْوَطٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ [الشعراء: ١٦٧]، بأنه لم يكن الجميع يفعل الفاحشة بل كانوا بين فاعل وبين راضٍ ومؤيد؛ فامرأة لوط لم تفعل الفاحشة لكن كانت راضية بها مائلة إلى قومها^(١)، وفي بعض الروايات أنها دلتهم على أضياف لوط وأنهم عرفوا وجود ضيفه من الملائكة - الذين أتوا العذابهم ولا يشعرون - من خلال امرأته.

أما لوط عليه السلام فلم يكتف بالبراءة من الفاحشة وعدم الرضا بها بل ولم يسكت فكان جُلّ غضبهم أنه ينهي وينكر ويعترض وهذا ما أظهر فحشهم أكثر مما هو ظاهر وذلك بوجود الطيب الطاهر المناقض لحالمهم .. فكان ظهور ووضوح طهر لوط مع إنكاره يؤرقهم .. عليه السلام.

يدور القصص كله حول مواجهة انحراف واقعي موجود إما في النفوس بمعتقداتها وشركها وإما في الواقع بخلق وأعمال وأوضاع منحرفة.

يدور القصص حول أن هذا الدين - الإسلام - دين واقعي وجاد وبالتالي فهو مواجه ومصحح للانحراف.

(١) فإنه لم يتلوث فراش نبي قط بفاحشة كما قال علماء السلف.

وهذه المواجهة لها وسائلها اللائقة بحسب ظروف المؤمنين وقوتهم أو ضعفهم؛ لكن على الأقل يعلن الحق ويعرّي الباطل، ولا عذر لمن يرث الأنبياء أن ينحرف عن هذا.

ويحسن هنا أن ننقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نقلين لهما دلالتهما - وسوف نكررها ونستصحبها عند الكلام على القصاص في المرحلة المكية -.

هذان النقلان يدوران حول هذه الحقيقة أنه لم يكن ثمة عذر لأحد في تعرية الباطل وبيانه وبيان الحق للناس حتى لو كان هذا هو سبب البلاء الذي لاقاه رسول الله ﷺ والمؤمنون معه:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في "الصارم المسلول": «ألا ترى أن قريشًا كانت تقارّ النبي عليه الصلاة والسلام على ما كان يقوله من التوحيد وعبادة الله وحده ولا يقارونه على عيب أهنتهم والطعن في دينهم وذم آبائهم»^(١).

ويقول الشيخ محمد عبد الوهاب في "مختصر سيرة الرسول": «بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ثم ذكر قصة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ والقصة في الصحيحين وفيها: أن أول ما أنزل عليه: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا تَرَى عَلَمٌ﴾، ثم أنزل عليه: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ﴾ (١) ﴿فَمَا نَذِرُ﴾ (٢) ﴿وَرَبِّكَ فَكَيْفَ﴾ (٣) ﴿وَيَأْتِيكَ فَطَفِرُ﴾ (٤) ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْجُرُ﴾ (٥) ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ (٦) ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ﴾.

فمن فهم أن هذه أول آية أرسله الله بها عرف أنه سبحانه أمره أن ينذر الناس عن الشرك الذي يعتقدون أنه عبادة الأولياء ليقربوهم إلى الله قبل إنذاره عن نكاح الأمهات والبنات وعرف أن قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ فَكَيْفَ﴾ أمر بالتوحيد قبل الأمر بالصلاة وغيرها وعرف قدر الشرك عند الله وقدر التوحيد.

فلما أنذر ﷺ الناس استجاب له قليل وأما الأكثر فلم يتبعوا ولم ينكروا حتى بادأهم بالتنفير عن دينهم وبيان نقائصه وعيب أهنتهم فاشتدت عداوتهم له ولن تبعه وعذبوهم عذابًا شديدًا وأرادوا أن يفتنوه عن دينهم.

فمن فهم هذا: عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه، وعيب دينه، وإلا لو كان لأولئك المعذيين رخصة لفعلوا.

وجرى بينه وبينهم ما يطول وصفه وقص الله سبحانه بعضه في كتابه.

ومن أشهر ذلك: قصة عمه أبي طالب لما حماه بنفسه وماله وعياله وعشيرته وقاسى في ذلك الشدائد العظيمة وصبر عليها ومع ذلك كان مصدقًا له مادحًا لدينه، محبًا لمن اتبعه معاديًا لمن عاداه لكن لم يدخل فيه ولم يتبرأ من دين آبائه واعتذر عن ذلك بأنه لا يرضى بمسبة آبائه ولولا ذلك لاتبعه ولما مات وأراد النبي ﷺ الاستغفار له أنزل الله عليه: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فيا لها من عبرة ما أبينها؟ ومن عظة ما أبلغها! ومن بيان ما أوضحه!

لما يظن كثير ممن يدعي اتباع الحق فيمن أحب الحق وأهله من غير اتباع للحق لأجل غرض من أغراض الدنيا^(١).

ومع هذه المواجهة يأتي التأسّي في الصبر في المواجهة والقوة ووضوح الحق وعدم الاستعجال: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ أَلَا حَمِيتَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

والثقة بنصر الله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩].

والمبالغة في الدعوة والنصيحة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا إِفْرَارًا﴾.

والتنوع في سبيل الدعوة والإلحاح في طلب الخير لهم: ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْنَعُهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَأَسْتَفْسَفُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِفْرَارًا﴾.

ثم سلوك مسلك الترغيب لهم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِتْ لَكُمْ عُجْبًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ثم التهديد والتخويف: ﴿مَالِكُ لَا تَزْحَمُ لِلَّهِ فِئَةً ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

ثم الدعوة للتأمل والتفكير في خلقه تعالى وحكمة هذا الخلق وما وراءه من مقاصد^(٢): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾.

واستدلال خاص على الآخرة وإعادة الخلق بما يشاهدونه من الإعادة في كل لحظة: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْآرْضِ بَسَاطًا ﴿١١﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٥-٢٠].

وقوة الإيمان، وقوة التعلق بالله، وقوة التوكل عليه، ودعاؤه ورجاؤه وغبته ورهبة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُدَّتْهُمْ أَفْتِدَةٌ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: ٩٠]، فهذا الأمر جاء بعد موقف تحنّف إبراهيم وبراءته من الشرك: ﴿فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَنْ يَنْبَغِيَ لِي أَنْ يَهْدِيَ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿١٧٧﴾ [الأنعام: ١٧٧]، على وجه التضرع لله تعالى أن يهديه وإلا ضل؛ فيضرع لله تعالى عالماً أن الهدى منه وحده..

ثم يعلن إيمانه وتحنّفه لله تعالى وحده: ﴿فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ يَنْفَعُونَ إِنِّي بِرَبِّي مُّمَدَّدٌ ﴿٧٨﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٧].

وإفراد الله تعالى بالخوف.. والاستهانة بل والاستنكار أن يخاف مما سواه بيننا والمشارك لا يخاف الله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

(١) مختصر سيرة الرسول، ج ١، ص ٢٣.

(٢) يراجع فصل الكون والخلق.

كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[الأنعام: ٨٠-٨١].

ثم ذكر تعالى عن كل هؤلاء أنهم على نفس موقف التحنط والتعلق الذي أعلنه إبراهيم وأمر بالافتداء بهم في هذا، وهنا جاء الافتداء^(١)، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتِدَةٌ قُلْ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿[القم: ٩-١٠]

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿[النكبت: ٢٩-٣٠].

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ رَبِّ اعْلَمْ بِمَا نَعْمَلُونَ ﴿[الشعراء: ١٨٧-١٨٨].

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿[الشعراء: ٦١-٦٢]، ﴿وَيَلْقَوْنَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ أَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿[هود: الآية ٩٣].

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿[الأعراف: الآية ٨٩].. وغيرها الكثير من الآيات في هذا المعنى.

فالأسوة والقدوة والتسلية التي خطب بها رسول الله ﷺ من خلال قصص إخوته من الأنبياء السابقين جاءت على هذا المعنى من التصحيح والمواجهة بالحق وتعرية الباطل، هنا تأتي الأسوة والقدوة، ومن لم يفهم هذا المعنى فيكون ما فهمه من الأسوة معنى ضيقاً غير لائق بكل هذه المساحة الكبيرة للقصص فأساس القدوة هو في سلوك نفس خط الأنبياء والتأسي بمواقفهم أثناء هذه المواجهة، ومستوى إيمانهم وإخلاصهم ومدى نصحتهم وشفقتهم لأمتهم.

ثم تأتي بعد هذه الأسوة، الأسوة في الضائقة الشخصية التي تمر بأحدنا من الكروب والهموم وغوم الدنيا فيتأسى أيضاً بهؤلاء الصالحين.

فالابتلاء الذي يكون سببه الطاعة وأعلاها التوحيد أعظم قدرًا من الابتلاء بالمصائب المقدره بلا سبب من العبد، ويقول شيخ الإسلام: أن صبر يوسف على أمر السجن بسبب طاعته لله وامتناعه من الفاحشة أعظم قدرًا من صبره على إلقائه في الجُبِّ، ولكل أجره، لكن ما كان بسبب طاعة كان أعظم، وانظر كذلك إلى ما قاله هو وقاله الغزالي أيضًا من أن صبر رسول الله ﷺ على الأذى بمكة أعظم من صبر يوسف على السجن لأن سجن يوسف بسبب الامتناع عن الفاحشة، بينما كان صبر رسول الله على التوحيد والدعوة إليه والنهي عن الشرك^(٢).

(١) انظر سورة الأنعام.

(٢) راجع مجموع الفتاوى جـ ١٠.

فِيئَأَسَى بِالْأَنْبِيَاءِ فِي الْجَانِبِينَ:

أولاً: سلوك طريقهم بإصلاح الحياة بالتوحيد والنهي عن الشرك وإقامة فرائض الله تعالى وحفظ محرماته وإقامة دينه عموماً واستلهم مستواهم وإيمانهم في هذا الطريق، وهذا أعلى.
وثانياً: التأسى بهم فيما يواجهنا في حياتنا من المصائب المقدرة والمواقف المختلفة، من باب الاستقاء منهم والتأثر بحالهم، ولهذا تفصيل سيأتي إن شاء الله في فصل الشخصيات التي عرضها القرآن.

ومن يقرأ القصص ولا يفهم هذا .. فليعد مرة ثانية ..

ولينظر ماذا حمل المسلمون وماذا واجهوا ولماذا ابتلوا ولماذا تعبوا وكذبوا وبدلوا؟.

ومن يعرض القصص عرضاً قصصياً مجرداً فماذا فقه؟ وماذا يقول للناس ولماذا يعرضه عليهم؟
وأين العبرة التي نص القرآن عليها حين قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَاتَبْنَا فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ولللأسف فالكثير ينظر إلى العبرة في ثنايا الأحداث ونكات المواقف ونوادير الأمور وقد تكون مليحة لكنها ليست صلب العلم وليست القصد الأصلي من القصص.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿[فاطر: ٤ - ٥].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَحْسَبُ الرَّسُولَ نُوْحًا﴾ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَحْسَبُ الْأَيْكَتَ وَفَوْمٌ نَبِيٌّ كُلُّ كَذَّبَ

الرُّسُلِ حَقٌّ وَعِبْدٌ ﴿[ق: ١٢ - ١٤].

﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿[فاطر: ٢٥ - ٢٦].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْهَضْنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْكَبِيرَ﴾ (١٦) وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ

الرُّسُلِ حَقٌّ ﴿[الأنعام: ٣٤].

مثال سريع لموقع القصص بين بيان التوحيد والوعيد بالآخرة، والربط بين الواقع الذي يواجهه رسول الله ﷺ وبين الماضي والعبرة منه وبين المستقبل في الآخرة:

اقرأ سورة الحاقة .. شديدة الإيقاع .. أين سيق القصص فيها ولم؟ وما العبرة منه في سورة تعرض مشاهد الآخرة قوية مفصلة ..؟.

تجدها مواجهة معاصرة زمن الرسول مع مواجهة الرسل قبل ذلك في التاريخ، ثم يذكر المواجهة أمام رب العالمين يوم القيامة للحساب.

فأولاً: يذكر يوم الحساب والأخذ يوم القيامة، والتذكير بالأخذ في الدنيا، ولهم في هذا سلف يذكرهم بهم وهو القصص: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى ﴿٤﴾ فَأَتَاهُمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَارِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا

فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَيْنَ كَأَنَّهُمْ آعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيكُمْ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَنَاطِقُا الْمَاءَ مَمْلُوكِينَ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَعِيَةٌ ﴿الحاقه: ١-١٢﴾.

ثم فصل تعالى شأن الآخرة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٢﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿الحاقه: ١٣-١٨﴾.

ثم ذكر تعالى أسباب عذاب من عُدب بأنه الانحراف عن التوحيد، والانحراف عن الحقوق التي يجب أن تؤدى، والتي يخاطب بها من توجه لله وحده: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿الحاقه: ٣٣-٣٧﴾.

ثم استدل على صحة الرسالة وطالما هي رسالة ففيها أوامر للمرسل وشرعية يجب قبولها: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا تَبْحُرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْحُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِتُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الحاقه: ٣٨-٤٣﴾.

والأمر غاية في الجدل: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ مَكْذِبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿الحاقه: ٤٤-٥١﴾.

ثم تختتم السورة بتتزيه الله تعالى عن الشرك في العبادة من الطاعة والتعظيم والخضوع والحب، وعن ما لا يليق من الوصف ومن الظن.

فمن أجل هذه الكلمة كان كل هذا الصراع التاريخي والحالي: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿الحاقه: ٥٢﴾.

سبحان ربي العظيم.

ثانياً: قصص الأحداث في مكة ومواجهتها وحكاية القرآن لها وتعليقه عليها

وذلك لتتبع نفس هذا المقصد من مواجهة هذا الدين وواقعيته وحيويته ومدافعتة للباطل

وخطابه لكل جيل باستمرار هذه المواجهة

لإقامة الحق وتمكينه وكبت الباطل وإذلاله وإيصال الخير للناس ونفعهم ونجاتهم

وإنما سردنا هذا في خلال القصص لأنها أحداث وقعت بمكة حكاها القرآن أو نزل بسببها وعلق عليها، ولا يقرأ أحد السيرة خاصة المدونة قديماً كابن إسحاق إلا ووجد الارتباط الشديد بين الأحداث والآيات، حتى نجد ابن هشام وابن إسحاق ليقفا عن سرد الأحداث ويفسرا السور التي نزلت بسببها، وكذلك من يقرأ التفسير يجده معلّقاً على الآيات من خلال أحداث السيرة.

وكما أن آيات الأحكام لا تفهم إلا إذا فهمت أسباب نزولها لتحديد معناها ثم المعنى الذي يثبت يكون عامّاً بعد ذلك ..

فكذلك الآيات المرتبطة بأحداث مكة والمدينة لن تفهم إلا إذا فهمت أسباب نزولها وظروفها المحيطة بها، ولهذا فُضِّل الصحابة في علمهم وفهمهم لمعايشتهم التنزيل وفهمهم معنى الآيات وما قصد به منها كما يقول ابن مسعود: والذي لا إله إلا هو ما في كتاب الله سورة إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا فيه آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت^(١).

والقاعدة الأساسية التي تدور عليها أحداث هذه المرحلة والآيات والسور التي نزلت من أجلها هي نفس القاعدة التي دار عليها قصص الأنبياء: أن رسول الله ﷺ سلك طريق الأنبياء من قبله؛ وجد انحرافاً فأمر، وبناءً على ذلك شرع في مواجهة هذا الانحراف، وبنفس الطريقة (ثبّت) ﷺ ما أنزل إليه من ربه أنه - بكل مضمونه وبكل محتواه - هو الحق الثابت وعليه أن يلتزمه ويدعو المجتمع لهذا الالتزام، ولم يكتف بهذا بل وضح لمجتمعه مقدار انحرافه وسفاهة المخالفة وعوار ما هم فيه، وكان هذا عليهم أشد، ونعيد هنا نقل ما نقلناه عن شيخ الإسلام ابن تيمية ثم عن شيخ الإسلام محمد عبد الوهاب:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في "الصارم المسلول":

«ألا ترى أن قريشاً كانت تقارّ النبي عليه الصلاة والسلام على ما كان يقوله من التوحيد وعبادة الله وحده ولا يقارّونه على عيب أهتهم والطعن في دينهم وذم آبائهم»^(٢).

ويقول الشيخ محمد عبد الوهاب في "مختصر سيرة الرسول": «بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ثم ذكر قصة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ والقصة في الصحيحين وفيها: أن أول ما أنزل عليه: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا لَرَبِّعَمَّ ﴾، ثم أنزل عليه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَتَّبِعْكَ فَطَفِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتُنَكَّرَ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾.

(١) المعجم الكبير، ج ٩، ص ٧٣.

(٢) الصارم المسلول، ج ١، ص ٣٠٩.

فمن فهم أن هذه أول آية أرسله الله بها عرف أنه سبحانه أمره أن ينذر الناس عن الشرك الذي يعتقدون أنه عبادة الأولياء ليقربوهم إلى الله قبل إنذاره عن نكاح الأمهات والبنات وعرف أن قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أمر بالتوحيد قبل الأمر بالصلاة وغيرها وعرف قدر الشرك عند الله وقدر التوحيد.

فلما أُنذِرَ النَّاسَ استجاب له قليل، وأما الأكثر فلم يتبعوا ولم ينكروا حتى بادأهم بالتنفير عن دينهم وبيان نقائصه وعيب آهتهم فاشتدت عداوتهم له ولمن تبعه وعذبوهم عذاباً شديداً وأرادوا أن يفتنوه عن دينهم.

فمن فهم هذا: عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعَيَّب دينه وإلا لو كان لأولئك المعذبين رخصة لفعلوا.

وجرى بينه وبينهم ما يطول وصفه وقص الله سبحانه بعضه في كتابه.

ومن أشهر ذلك: قصة عمه أبي طالب لما حماه بنفسه وماله وعياله وعشيرته، وقاسى في ذلك الشدائد العظيمة وصبر عليها ومع ذلك كان مصدقاً له مادحاً لدينه، محباً لمن اتبعه معادياً لمن عاداه، لكن لم يدخل فيه ولم يتبرأ من دين آبائه واعتذر عن ذلك بأنه لا يرضى بمسبة آبائه ولولا ذلك لاتبعه، ولما مات وأراد النبي ﷺ الاستغفار له أنزل الله عليه: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فيا لها من عبرة ما أبينها؟ ومن عظة ما أبلغها! ومن بيان ما أوضحه! لما يظن كثير ممن يدعي اتباع الحق فيمن أحب الحق وأهله من غير اتباع للحق لأجل غرض من أغراض الدنيا^(١).

ثم ثبت عليه الصلاة والسلام على هذا التبيين والتوضيح - لم يتخطاه إلى قتال - ولكن لم يتنازل ولم يتراجع عنه، وأثناء هذه المواجهة كانت الآيات تنزل: توضح له الطريق، تؤكد له أنه على الحق: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، تسليه بالرسول من قبله وتثبت فؤاده: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ آبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فُوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [مؤد: ١٢٠].

ولننظر لبعض المواقف وارتباطها بالآيات

أول ما صعد على الصفا صعد بأمر فيه بهذا الجهر بدعوته: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، فرد عليه أبو لهب برده المشهور تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟ ثم تبادى في موقفه فانحاز عن بني هاشم أثناء حصار الشعب قال ابن عباس: (ما كان أبو لهب إلا من كفر قوميه، حتى خرج منا^(١) حين تحالفت قريش علينا فظاهروهم، فسبه الله)^(٢)، فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ السورة.

* * *

اجتمع القرشيون قبل موسم الحج حتى لا يختلفوا في شأن النبي ﷺ فيكذب بعضهم بعضاً، وعرضوا أمرهم على الوليد بن المغيرة فنزلت:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۗ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَيْنِدَا ۖ سَاءَ هَيْكَلُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُضِلُّهُ سَقَرًا ۖ وَمَا أُذْرِكُهُ سَقَرًا ۖ لَا يُبْقِي وَلَا نَذَرَ ۖ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۖ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ١١ - ٣٠]، ونزلت: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۖ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩١].

عن ابن إسحاق قال: «حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجتمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا يكذب بعضكم بعضاً ويرد قول بعضكم بعضاً فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقوم به فقال: بل أنتم قولوا أسمع .

فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن؛ لقد رأيت الكهان فما هو بزمنة الكاهن وسجعه، فقالوا: نقول مجنون، فقال: ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، فقالوا: نقول شاعر، فقال: ما هو بشاعر؛ قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر؛ قد رأينا السحار وسحروهم فما هو بنفته ولا عقده.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لخلوة إن أصله لعذق وإن فرعه لجني، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه وبين المرء وبين أخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته، ففارقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون يسألون الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة .

(١) يعني بني هاشم.

(٢) الصارم المسلول، ج ١، ص ١٦٩.

وفي ذلك من قوله: ﴿ ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ سَأَصْلِيهِ سَقَرًا ﴾، وأنزل الله عز وجل في النفر الذين كانوا معه يصنفون له القول في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من عند الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أي: أصنافًا ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴾ أولئك النفر الذين يقولون ذلك لرسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها^(١).

هل يمكن فهم الآيات ومعناها إلا من خلال هذه الأحداث ولم كانت؟ ثم لا تنتهي العبرة هنا بل ينبغي أن يُعلم أن هذه هي طبيعة هذا الدين.

ولما تهكم أبو جهل وغيره بعدة - يعني عدد - الملائكة الموكلة بالنار نزلت الآية بعدها: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّانَا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣١].

يقول ابن كثير: «فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ ﴾ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون، وقد قيل إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال: يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجابًا منه بنفسه وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يترشح عنه^(٢)».

وفي سبب نزول بعض آيات سورة الإسراء يذكر ابن كثير نقلاً عن الطبري فيقول:

«قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختری أخا بني أسد والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأميه بن خلف والعاص بن وائل ونيبها ومنبها ابني الحجاج السهميين ..

اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصاً يجب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم .

(١) سيرة ابن إسحاق، ج ١، ص ١٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٥٧١.

فقالوا: (يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرثي - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك..

فقال رسول الله ﷺ ما بي ما تقولون ما جثتكم بما جثتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل على كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن قبلوا مني ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)، أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً..

فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلائاً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت إنما جثتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تتبغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ..

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن قبلوا ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم قالوا: فأسقط الساء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك ..

فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جثتنا به فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى تهلك أو تهلكنا ..

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله

والملائكة قبلاً ..

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من عذاب فوالله لا أو من بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وأيم الله لو فعلت بذلك لظننت أني لا أصدقك^(١).

فنزلت الآيات الكريمة: ﴿ وَكَذَرْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٨ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا ۝٨٩ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ۝٩٠ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا لِسَعْفٍ أَوْ تَأْتِي بَالِهَةٍ وَالْمَلَكُوتَ قَيْلًا ۝٩١ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّعٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٢ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٤].

كانت حادثة الإسراء فنزلت صدر سورة الإسراء وصدر سورة النجم: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: الآية ١]، والبعض يربط السياق بعدها بنفس الحادثة: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَنَجَّدُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ۝٢ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفِّسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلِمُوا نَتِيبًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاً وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء: ٢-٨].

وبعض المفسرين على أن هذه الآية أيضًا فيها: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَةَ يَا آلِيَّ أَرَبِيكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُعِينًا كَبِيرًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٦٠].

ونزل صدر كذلك سورة النجم، وهي تخص المعراج: ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَتَمْتَرُونَ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَ جَانَّةِ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَبْعَثُ السِّدْرَةَ مَا يَغْتَشِي ۝١٦ مَازِعَ الْبَصَرِ وَمَا طَعْنَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ [النجم: ١٠-١٨].

جاء أبي بن خلف ففتت عظمًا باليًا أمام النبي وقال أترعم أني إذا صرت كهذا العظم أن الله سيعيدني؟ قال نعم ويدخلك النار فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَبِّحْنِ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

* * *

عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً^(١)، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَوْلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمَّا أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مَنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرِيهِهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ [مريم: ٧٧-٨٠]، أخرجه صاحبنا الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً فجئت أتقاضاه فذكر الحديث^(٢).

* * *

بالغ الأحنس بن شريق الثقفي في عداته للنبي فنزلت: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١١﴾ هَذَا مَشَاءٌ يَنْبَغِي ﴿١٢﴾ مَتَاعٌ لِلْغَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَمِعُ ﴿١٣﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ ﴿١٤﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٥﴾ إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتِنَا قَالَ كَأَنَّهُ اسْطِيبُ الْأُولَٰئِكَ ﴿١٥﴾ سَتِيسُهُ عَلَى الْغُرُطُورِ ﴿١٥﴾ [القلم: ١٠-١٥].

* * *

وعاب عليه آخر وطعن فيه فنزلت: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحَسِّبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخَطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلَعُ عَلَى الْأَعْيُنِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ [الهمزة: ١-٩].

* * *

احتجوا بالقدر على شركهم فنزلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَحَنَّا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِضَ عَلَىٰ هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ [النحل: ٣٥-٣٧].

* * *

(١) يعني: حدادًا، وكان يعمل السيوف رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ١٨٣.

احتجوا بالقدر على عدم الإنفاق فنزلت: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُكُمْ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُمْ إِنْ أُنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧].

احتجوا على بشريته فحكى قولهم ورد عليهم: ﴿ وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَبْتَئِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُورُ بِهِ مَعَهُ نَذِيرًا ۗ ﴾ (٧) أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَشَاءُ نَحْنُ غَيْرُ الْأَرْجُلِ مَسْحُورًا ۗ ﴾ (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۗ ﴾ (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ۗ ﴾ (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۗ ﴾ (١١) إِذَا رَأَوْهُمُ مِنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۗ ﴾ (١٢) وَإِذَا الْقَوْمُ مِنْهَا مُكِنًا ضَبِيقًا مُقْرَيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۗ ﴾ (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [الفرقان: ٧-١٤]، ثم قال بعدها: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ بَرُورٌ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۗ ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَخْذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۗ ﴾ (١١) إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۗ ﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

وأنزل تعالى: ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۗ ﴾ (١٩) قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ۗ ﴾ [الاسراء: ٩٤-٩٥].

حكى جملة من افتراءاتهم وناقش شبههم فحكاها سبحانه جملة وفضح واقعهم: ﴿ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِعَمَّتِ رَبِّكَ يَكَاهِنَ وَلَا يَحْمِنُونَ ۗ ﴾ (١٨) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَابِغٌ بِهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ ۗ ﴾ (١٩) قُلْ تَرَىٰ صُورًا فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَرْيُومِ ۗ ﴾ (٢٠) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۗ ﴾ (٢١) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ ﴾ (٢٢) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۗ ﴾ (٢٣) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۗ ﴾ (٢٤) أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُنَّ أَرْضُونَ ۗ ﴾ (٢٥) أَمْ خُلِقُوا مِنْ خَزَائِنِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ۗ ﴾ (٢٦) أَمْ هُمْ سَاءٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِلُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ۗ ﴾ (٢٧) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ۗ ﴾ (٢٨) أَمْ تَسْأَلُهُمْ آجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۗ ﴾ (٢٩) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۗ ﴾ (٣٠) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۗ ﴾ (٣١) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۗ ﴾ [الطور: ٢٩-٤٣].

اشتد تأثيره عليهم ﷺ حتى تمنوا أن لو جاملهم بعض المجاملة، فنزلت بعدم الرجوع في هذا التأثير وهذا البيان: ﴿ فَلَا تَطْعَمُ الْمَكِيدِينَ ۗ ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۗ ﴾ [القلم: ٨-٩].

وحكى اعترافهم بشدة التأثير فيهم لوضوح قضيته: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَخْذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۗ ﴾ (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۗ ﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

واشدد الضغط عليه لترك معتقده أو التنازل عنه فأنزل تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِفَتْرَىٰ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُ ۚ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ حِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَفَدَّكَ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَادَفَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

واشدد الضغط إلى إخراجهم فنزلت: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِطْفًا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ سَنَّةً مِّن قَدَرٍ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا مَحْوِيلًا ﴿٨٠﴾ [الإسراء: ٧٦ - ٧٧].

حكى إنكارهم للبعث كثيرًا ورد عليهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۗ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ الْبُرِّ ﴿٥﴾ [سبا: ٣ - ٥].

﴿ بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِنَا هُتًىٰ وَمُنذِرًا مِّنذُرٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا مَوْءُؤٌ عَجِيبٌ ﴿٧﴾ أَوَّٰهًا مِّنَّا وَكِنَانًا ۗ إِنَّ آيَاتِنَا تُرْجَعُ بَعِيدًا ﴿٨﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٩﴾ [ن: ٢ - ٤].

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَأَنَّىٰ خَلَقَ جَدِيدًا ۗ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوفَّئِكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ [السجدة: ١٠ - ١١].

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿١٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿١٣﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُنَجِّجُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكَكُمْ إِيَّتَهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿١٥﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٧].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادِكُمْ ﴿١٦﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْعَلُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا لِحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ [الأنعام: ٢٩ - ٣٠].

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَرْجِعُوا قُلُوبُهُمْ وَأَنْ يُرْفَعُوا قُلُوبُهُمْ لِيُذَكَّرُوا بِهِمْ وَقَدْ خُفِيَ عَلَيْهِمْ أَهْلُكُم مِّن قَبْلُ ۗ قُلْ لَا يُرْفَعُ قَلْبُ مَن ظَلَمَ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٠﴾ [التغابن: ٧].

كشف بواطنهم وأنها تعرف أنه الحق: ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ وَيَجْحَدُونَ ﴿٢١﴾ [الأنعام: ٢٣].

يقول ابن كثير: «وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة حدثنا بشر بن المبرر الواسطي عن سلام بن مسكين عن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصباغي؟ فقال: والله إني لأعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعًا؟ وتلا أبو يزيد: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ وَيَجْحَدُونَ ﴾.

وقال أبو صالح وقناة: يعلمون أنك رسول الله ويجدون..

وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء به ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم لثلاثا يفتتنوا بمجيبهم .

فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا .

فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا مثلها ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه قال: فقام عنه الأخنس وتركه^(١).

وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدي في قوله: ﴿ قَدْ نَعَلَمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِحَدُوثِهِ ﴾، لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة إن محمداً ابن أختكم فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته فقوا حتى ألقى أبا الحكم فإن غلب محمد رجعتن سالمين وإن غلب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً - فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أبي

فالتقى الأخنس وأبو جهل فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة فهاذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِحَدُوثِهِ ﴾^(٢).

* * *

كانوا من سفاهتهم يطوفون بالبيت عراة وينسبون هذا لله لأنه لم يغيره عليهم بعداب بقدره تعالى ففهموا من هذا رضاه تعالى عن هذا الفحش، فتجرأوا بنسبته لله تعالى، فنزلت آيات الأعراف:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْصِيَاءَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَوْصِيَاءَ النَّبِيِّينَ يُخْرِجْ اللَّهُ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٣) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢١﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

(١) ونزل في هذا قول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .
(٢) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ١٧٦ .

مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَنْبَغِي مَا دَمَ خُدُّوْا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَكُمْ مَسْجِدٍ وَكُلُّوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تَسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا تُمَيِّزُوا بِاللَّهِ مَا تَرَى يُنَزِّلُ بِهِ سُلْطٰنًا وَأَنْ تَقُولُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٣].

* * *

كان شركهم سفيهاً - ككل أنواع الشرك حتى لو تلبست بمسوح العلم والأساتذة - ففضحهم ربك وذلك لما مارسوا التشريع من دون الله تعالى فمع فضح سفاهتهم وجهلهم كان بيان موضوع التشريع وأنه حق خالص لله تعالى وأن شأن الذبيحة فيه كشأن الدولة. قال ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قول: ﴿ قَدْ ضَلُّوْا وَمَا كَانُوْا مُهْتَدِيْنَ ﴾^(١).

يقصد ﴿ هذه الآيات: ﴿ وَجَعَلُوْا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيْبًا فَقَالُوْا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾^(١٣٦) وكذلك زَيْنٌ لِكَثِيْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ قَتَلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُرْذُوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوْا عَلَيْهِمْ دِيْنََهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوْهُ فذَرَهُمْ وَمَا بَقِيَّتُوْنَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوْا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهُمْ إِلَّا مَنْ نَّشَاءَ بِرْغِمِهِمْ وَأَنْعَمَ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُوْنَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْرَاءٌ عَلَيْهِ سَجَزِيْهِمْ يَمَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوْا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذِكْرِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوْا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْرَاءٌ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوْا وَمَا كَانُوْا مُهْتَدِيْنَ ﴿١٤٠﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُوْنَ وَالرَّيْحَانَ مُنْتَشِئًا وَغَيْرَ مُنْتَشِئٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِنْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴿١٤٢﴾ تَمَنِّيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ النَّسَاِئِ اثْنِيْنَ وَمِنَ الْأَبْلٰئِ اثْنِيْنَ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنِيْنَ قُلْ ءَالَّذِكْرِيْنَ حَرَّمَ أَمِ الْآثْمِيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أُجِدُ مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيْرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُوْمُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَابِيَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصٰدِقُوْنَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْرِ الْمُجْرِمِيْنَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوْا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا سَكٰتًا هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا لِنَأْتِيَنَّهُنَّ بَشَآئِرُ مِمَّن قَدَّمْنَا عَنْهُنَّ لَآ لَظَنَ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خَوْصُوْنَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيْغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَآءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُوْنَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوْا فَلَا تَشْهَمُوْهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِمَا لَيْسَ ءَالِيْنَا وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُوْنَ ﴿١٥٠﴾ [الأنعام: ١٣٦-

كشف حسدهم له وغيرتهم منه بسبب فضل الله عليه وما خصه به من الذكر والقرآن العظيم، فنزلت: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَاهُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ [القلم: ٥١ - ٥٢].

اشتد أذى الكفار للمؤمنين فكان لا بد من الهجرة، وكانت الهجرة بالدين غريبة على الواقع العربي، بل كان الطرد من القبيلة عقوبة للشخص المغضوب عليه من قبلها، فقبل الأمر بها أنزل تعالى سورة الكهف وأشار فيها للفتية الذين هاجروا بدينهم لإعطاء الصحابة هذا المثل قبل أن يأمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَمْ يَشَأْ أَمْدًا ﴿١٢﴾ [الكهف: ٩ - ١٢].

ونزل كذلك للتحضيض على الهجرة والتشجيع عليها ومعالجة هاتف الخوف على الرزق إن هاجروا وتركوا بلادهم: ﴿ يَعْجَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعُهُمْ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ [النكبوت: ٥٦ - ٦٠].

وغير هذه الآيات كثير، فمن قرأ السيرة وجد القرآن مرتبطاً بها وبأحداثها، ومن قرأ الآيات والسور التي نزلت في هذه المرحلة وجدها لا تفسر إلا بالسيرة فيفهمها المتابع فهمًا جيدًا، ومن افتقد إلى هذا الربط كانت استفادته ضعيفة وانفعاله مؤقتاً وسطحياً، ولم يفهم المقصد الأساسي من هذه الآيات.

واضح أن هناك صراعاً خاضه محمد ﷺ، وكان ربه وليه في هذا الصراع والمواجهات؛ يُعلمه ويوضح له ويثبتة ويسليه ويمنعه من التراجع وينهاه عنه أمام الضغوط التي تواجهه.

هذا هو نفس المغزى من قصص الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام. وهو طريقة إقامة هذا الدين دوماً، ومن ينطلق به ينطلق ومعه هذا الكتاب العزيز يخوض به نفس الصراع والنضال الذي خاضه محمد ﷺ.

فمن لم يفهم هذا فماذا يفهم من كل هذه الآيات الكريمة! وهي تحكي هذا الكم من الأحداث، فإن فهم أن هذا صراع محلي مخصوص ببيئة معينة في الصراع الأول للإسلام فقط ولم يفهم أن هذا هو طبيعة دين الله تعالى فهو فهم قاصر ومضطرب، ولن يستفيد لإصلاح واقعه هو وواقع الناس من حوله في هذا الزمان، إضافة إلى خطئه في الفهم، فالقرآن إنما نزل لإصلاح كل واقع يأتي بعد نزوله إلى يوم القيامة، فكيف سيكون هذا إن لم يؤخذ القرآن بهذا الفهم وبهذا المآخذ؟.

وكذلك هناك فرق بين من يأخذ القرآن بمعناه وأسباب نزوله لكنه يأخذه لنفسه ولواقعه.. وبين من يأخذه على أن هذه الأحداث سرد تاريخي محض قد انتهت أحداثه وانتهى تأثيرها وإنما يقرؤه للتبرك المجرد.

كذلك من أراد الأسوة فليست في ارتداء زي بعينه والتزام سمت معين فقط - وهو أظهر وأزكى سمت وهدى - ولكن الأسوة الأولى في طريقة حياته وفي التغيير الحقيقي بهذا الدين.

ثالثاً: أحداث المدينة

وارتباط القرآن بهذه الأحداث يقصها ويعلق عليها ويوجه المؤمنين فيها

متتبعين نفس المقصد العظيم للقصص من مواجهة هذا الدين وواقعيته وحيويته ومدافعته للباطل

وخطابه لكل جيل باستمرار هذه المواجهة

لإقامة الحق وتمكينه وكبت الباطل وإذلاله وإيصال الخير للناس ونفعهم ونجاتهم

استمر إنشاء الأمة ومواجهة اعوجاج النفوس لإقامتها على المنهج المنزل من السماء، ولم يطلب عليه الصلاة والسلام بعض التعديل على دين الله أو تعديل مفهومه بل طلب من الناس وطلب الصحابة من نفوسهم أن تستقيم، وسبقت الإشارة إلى ارتباط آيات كثيرة من آيات الأحكام بأسباب نزولها.

لكن هنا في القصص ننظر إلى الأحداث التي واكبت نزول الآيات بل والسور فقد استمر خوض النضال والحركة بهذا الدين العظيم لإقامته وتمكينه في نفوس القائمين به أولاً ثم في نفوس الآخرين وفي الأرض كلها لتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

والدلالة واضحة من نزول سورة (الأنفال) تعليقاً على غزوة بدر، وسورة (آل عمران) أو نصفها بسبب غزوة أحد وأحداثها، ولن يفهمها القارئ إلا إذا عرف أحداث الغزوة.

وسورة (الحشر) بسبب إجلاء بني النضير وكان ابن عباس يسميها سورة بني النضير، وسورة (النور) بسبب حادثة الإفك في أحد الغزوات، وكذلك سورة (المنافقون) بسبب ما وقع من كلام ابن أبي في غزوة بني المصطلق، وسورة (الأحزاب) بسبب غزوة الأحزاب أو الخندق، وسورة (الفتح) بسبب غزوة الحديبية ومقدمات لغزوة الفتح الأعظم وبعض أحداثها، وسورة (النصر) عقب الفتح وفهم البعض منها كعمر وابن عباس أنها أجل رسول الله نعى إليه، وسورة (التوبة) بسبب غزوة تبوك.

* * *

نزلت سورة الأنفال تعقيباً على غزوة بدر

اختلف الصحابة في شأن الغنائم قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا - أصحاب بدر - نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانزع الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بؤاء، يقول: عن سواء^(١).

فنزلت مطلع السورة في هذا: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُوبُ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وكانوا قد خرجوا يطلبون العير (القافلة وما فيها من الأموال) فلقوا النفير والسلاح والحرب وكانوا كارهين للقتال فقد جاء على غير استعداد فنزلت: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا نُبِّئَ كَأَنَّمَا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْعُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

وكان في أحداث المعركة تأييد رباني وقاتل الملائكة معهم فنزلت: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمُلْأَمَةِ كَثْرَتِ مَرْدِينِ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

ونزل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرِهَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٣].

أخذ رسول الله يوم بدر حفنة من الحصى ورمى بها وجوه المشركين قائلاً: «شاهت الوجوه، سيهزم الجمع ويولون الدبر، فما تركت هذه الحصباء عين كافر ولا منخرية - أنفه - إلا أصابته بقدرة الله»، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

قال أبو جهل يوم بدر، وقيل قالها أيضاً وهو متعلق بأستار الكعبة عند خروجه من مكة لقتال رسول الله ﷺ: اللهم أينما أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَيْدِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ نَقْفِيَ عَنْكُمْ فَفَتَحْنَاكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَرِهْتَ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٧٥.

ولم يُنَسِّ للمشركين تأمرهم لقتل رسول الله أو سجنه أو إخراجه من داره مما كان سبباً لهجرته ومقدمته إما لعذابهم المستأصل كالأمم السابقة - وهذا ما توقعه أبو بكر، قال: أخرجوا نبينهم، ليهلكن - وإما لقتالهم كما هو الشأن من بعد موسى، فكان القتال، وكانت هذه الغزوة فذكروهم الله تعالى بهذا: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

قرر القرشيون بعد هزيمتهم أن يحجزوا أموال القافلة التي نجت من جنود المسلمين للثأر من يوم بدر فنزلت هذه الآية مع عمومها في كل زمان: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰشِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قسم عبد الله بن جحش غنائم أول سرية أن الخمس لرسول الله ﷺ فجاءت غزوة بدر وغنائمها فأقر تعالى تقسيمها على هذا النحو، ونزلت: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَدَّيِّرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

رأى رسول الله رؤيا منام أن الكفار قلة، ورأهم الصحابة كذلك عند التقاء الصفين، قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال: كنا ألفا. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١)، فنزلت: ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَعَثُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٢﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّبُكُمُ فِيَ أَعْيُنِهِمُ لِيَفْضِلَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٣-٤٤].

لما خرج المسلمون للقافلة لتعويض شيء مما أخذه الكفار من أموال المسلمين وديارهم التي صودرت بمكة ظلماً بسبب دينهم، ولكن نجت القافلة وكان قد خرج المشركون من مكة، فأرسل إليهم أبو سفيان أن قد نجت العير فارجعوا فصمم أبو جهل وقال: (لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا فلا يزالوا يهابوننا أبداً)، وهكذا خرج رياء وكبراً فنزلت: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وعندما خرج المشركون من مكة كان بينهم وبين كنانة شيء فخافوا أن يأتوهم من خلفهم، وخاف عدو الله إبليس أن يصددهم هذا عن حرب رسول الله فأتاهم في صورة سراقه بن مالك كبير تلك الناحية وطمانهم أنه يضمن لهم أن لا يؤتوا من خلفهم من كنانة، فلما كانت المعركة، ورأى عدو الله الملائكة

(١) تفسير ابن كثير.

ورأى جبريل فر هارباً فتعلق به رجل من المشركين كانت يده في يده فانتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته فقال الرجل: يا سراقه أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ففي هذا نزلت الآية: ﴿ وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

استهزأ المنافقون بالمسلمين لما رأوا ثقتهم في دينهم وأن الله تعالى سينصرهم، فتكلموا أن المسلمين خدوعون في دينهم فنزلت لكل زمان: ﴿ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

ذَكَرَ تعالى المشركين أن ما أصابهم من زوال النعمة وحلول القنمة بهم كان من عملهم وهذا شأنه تعالى بجمع الأمم ونزلت: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُ مَغْفِرًا نَّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٢) كَذَابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِبَايَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣-٥٤].

أصبح المسلمون في المدينة في مواجهة مستمرة مع الكفار من حولهم، قريش تريد الثأر والعرب ستر ميهيم عن قوس واحدة فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مَن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

حالة الصف المسلم في بدر وعمومًا قبل بدر وبعدها من التآلف بين المهاجرين والأنصار كانت نعمة عظيمة، فامتن الله تعالى علينا بهذه النعمة: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

جهز تعالى نفسية المؤمنين لمواجهة عالية جدًا مع المشركين، ثم نسخها تعالى بأخف منها لكن يبقى المؤمن دائمًا أقوى وأعلى فنزلت: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٥) أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦].

عاتب تعالى المؤمنين على استبقاء الأسارى ثم على أخذهم الفداء فقال: ﴿ مَا كَانَتْ لِيُنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩].

كان من بين الأسارى أشخاص لهم ميول للإسلام أو استعداد له، ولكن لم يمضوا عزيمة في الإسلام، ومنهم من يجب رسول الله ولا يريد عداه، فنزلت الآيات تشجع هؤلاء على الإسلام وتعددهم أن لو أسلموا لعوضوا عن الفداء الذي دفعوه مع مغفرة عداثهم للإسلام: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧١].

كان هناك أعراب أسلموا ولم يهاجروا فنزلت الآيات تنظم علاقتهم بالمركز في المدينة قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

انظر .. معظم السورة أحداث محددة حدثت، ومع هذا فالآيات عامة الدلالة صادقة الحقائق في جميع المؤمنين، وفي طبيعة الكفار إلى يوم القيامة، فلماذا إذا اختيار نزولها بهذه الأسباب؟ إلا أن يكون ارتباط بين الأحداث وبين كلام رب العالمين لواقعية هذا الدين وجديته وصراعه مع الباطل؟.

ارتبط حوالي ستون آية من آل عمران بغزوة أحد

وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرفهم يوم بدر وسَلِمَت العير بها فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان فلما رجع قفلهم إلى مكة قال أبناء من قتل ورؤساء من بقى لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد ﷺ فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة .

فصلى ﷺ يوم الجمعة فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو واستشار رسول الله ﷺ الناس (أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة) فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة؛ فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ورامهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين، وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم وقد ندم بعضهم وقالوا: لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له». وفي هذا نزلت: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

همت بنو حارثة وبنو سلمة بالرجوع مع من رجع ولكن ثبتهم الله تعالى فأنزل تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وعدهم رسول الله ﷺ بإمداد الله تعالى لهم بالملائكة إن صبروا فنزلت: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦].

تألوا لهزيمة أحد ولم يدركوا بعد سنته تعالى في الإدالة والإدالة عليهم حتى يمكن لهم، فأنزل تعالى يُعَلِّمُ سِنَّتَهُ وَيُعَلِّمُ قِيَمَةَ الشَّهَادَةِ وَعَظْمَ ثَمَنِ الْجَنَّةِ لِعَظْمِ خَطَرِهَا: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فِي ذَلِكَ الْقَوْمِ فَزَعٌ فَاصْتَبِرْ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ آلَافٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُهْبِطِينَ ﴿١٤٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨-١٤٢].

لما حدثهم رسول الله ﷺ بمنازل من استشهد يوم بدر فتمنوا الشهادة فلما كان يوم أحد وفر البعض نزلت الآية تذكركم: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قتل ابن قمئة - لعنه الله - مصعب بن عمير وكان مصعب - رضى الله عنه - إذا لبس لأمة الحرب يشبه رسول الله ﷺ، فلما قتله ظن أنه قتل رسول الله ﷺ فصرخ: قتلت محمداً، فنبط هذا همة المجاهدين معه حتى انصرف بعضهم عن القتال فنزلت الآيات لهذا، ولتعددهم ليوم موته والتي وعاهها جيداً أبو بكر ورددتها

يوم انتقاله عليه الصلاة والسلام للرفيق الأعلى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوحَّجًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَتَّبِعْ أَمْرَنَا وَنَضْرَبْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَانْتَهَمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿آل عمران: ١٤٤-١٤٨﴾.

لما كانت الهزيمة حاول البعض الاتصال بأبي سفيان وهم بطاعته عن ركون وانهمزام نفسي فأنزل تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ ﴿آل عمران: ١٥٠﴾.

وعدهم تعالى بالنصر إن وفوا بشروطه وإلا لم يكن الأمر كذلك، فكانوا على الشرط من طاعة رسول الله في أول المعركة فلما عصوا تبدل الحال وانصرف البعض منهزماً ورسول الله يدعوهم هلم إلي عباد الله، فكان خسارة النصر وخسارة الغنائم ثم الهزيمة، وأعلى من كل هذا جرح رسول الله فأنزل تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْرَبِكُمْ فَآتَيْتُمْكُمْ غَمًّا بَغِيًّا لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿آل عمران: ١٥٢-١٥٣﴾.

ارتاب البعض واهتم بنفسه، وثبت الآخر يدافع عن رسول الله وعن دينه فأنزل تعالى على الصادقين نعاساً على وجه الأمان لهم: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نَّعَاسًا يَنْشِئُ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿آل عمران: ١٥٤﴾.

كان الخروج إلى أحد بناء على مشورة المسلمين، وأصابهم ما أصابهم، ولم تكن الشورى هي السبب فنبه تعالى على أهمية الشورى حتى لا يتراجع أحد عنها وجعل القدوة في هذا خير الخلق وأكملهم: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ لَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿آل عمران: ١٥٩﴾.

اتهم بعض المنافقين رسول الله بغلول شيء قد فقد من الغنيمة فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ مَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿آل عمران: ١٦١﴾.

الإسلام أعظم قيمة يحملونها فذكروا هذه النعمة: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبَرَكِيَّتِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

تساءلوا عن سبب الهزيمة وقتل سبعين منهم وكانوا قد قتلوا سبعين وأسروا سبعين في بدر فنزلت: ﴿أَوَلَمْ أَصْـبِتْكُمْ مَّصِيبَةً مِّمَّنْ بَدَأْتُ لَكُمْ مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

انصرف عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش متعللاً بأن رسول الله قد أخذ برأي الصغار من شباب الصحابة ولم يأخذ برأي الكبار، فخرج خلفهم الصادق المجاهد عبد الله بن عمرو بن حرام يقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا فلم يرجعوا فنزلت: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّنَجُّمِ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ وَيُعَلِّمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فِقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِ بَدْرٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

لام بعض المنافقين من خرج أن خروجهم سبب موتهم فنزلت: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ قَادَرُوا عَنَ أَنفُسِكُمْ أَلَمْ تَمُوتُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

لقى الشهداء ربهم فرضي عنهم ورضوا عنه وسألهم ربهم ما يطلبون وما يتمنون؟ فقالوا: نريد أن نعود إلى الدنيا فنقتل فيك، فقال: إني قد كتبت أنهم إليها لا يرجعون، قالوا فبلغ عنا؛ فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٢٢﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٣﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

خشى رسول الله أن يعود أبو سفيان ومن معه إلى المدينة فخرج يطلبه في اليوم التالي وأمر عليه الصلاة والسلام أن يخرج معه كل من خرج بالأمس - يوم أحد - فخرجوا بجراحهم واستجابوا حتى كان بعضهم يحمل الآخر فنزلت: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

لما خرجوا إلى أبي سفيان رغم جراحهم أرسل عليه الصلاة والسلام رسالة إلى أبي سفيان أن قد ندم من لم يخرج من المسلمين بالأمس وخرجوا اليوم يتحرقون عليكم للثأر منكم، فخاف أبو سفيان لكن أرسل رسالة أخرى مع أحد المسافرين تجاه المدينة أنه راجع هو ومن معه لاستئصال المسلمين، فلما بلغ الخبر إلى المسلمين قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فنزلت: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

ارتبطت سورة الحشر بإجلاء بني النضير

«وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر وكان معها عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو .

فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين لأدينهما»، وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لها فيما حدثني يزيد بن رومان وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بها أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسأله عنه فقال: رأيته داخل المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم .

ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعييه على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوئل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا فخذف الله في قلوبهم الرعب فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجاجة - سهاك بن خرشة - ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله ﷺ قال: ولم يسلم من

بني النضير إلا رجلاً: يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلموا على أموالهما فأحرزاهما»^(١).

فنزلت سورة الحشر: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَمُوتَ غَوْبًا وَمَاتَ وَكُنْتُمْ أَنْتُمْ كَافِرِينَ ۝٢ فَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَّا حَسِبُوا وَقَدْ فِي أَيْدِيهِمْ الرِّعَابُ يَمْشُونَ بِالْيَدَيْنِ يَرْتَجُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْتَبُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْبِيَاءِ ۝٣ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [الحشر: ١-٤].

وأنزل تعالى في شأن تحريق النخل: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَسْتُمْ فَلَا تَمُوهَا فَإِنَّهَا قَائِمَةٌ عَطَىٰ أَصُولِهَا فَأَنْزَلْنَا اللَّهُ وَبَعَثْنَا فِيكُمْ الْقِسْيَانَ يُغَيِّرُونَ مَا بَدَلْتُمْ لِيُكْفِرُوا وَلِيَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥﴾ [الحشر: ٥].

وأنزل تعالى في شأن المنافقين الذين واعدوا بني النضير وأمروهم بالثبات ووعدوهم النصر، وفي شأن خوف اليهود من المسلمين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ۝١٢ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝١٣ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَوْمٍ مُمَيَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٤ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا آلًا مِمَّنْ هُمْ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ وَأُولَئِكَ أَكْثَرُ الْأَكْفَرِ قَالَ إِنْ بَرَىٰ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝١٥ فَكَانَ عِقَابَهُمَا أَنَّهَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [الحشر: ١١-١٧].

ارتبطت سورة الأحزاب بغزوة الخندق

اجتمع العرب عن قوس واحدة قريش وكنانة في أربعة آلاف، وهوازن وغطفان في ستة آلاف وجاءوا من شمال المدينة، وخانت بنو قريظة وهم في جنوب المدينة وبالقرب منهم نساء المسلمين وذرائعهم، وزلزلت قلوب المؤمنين كما وعد الله تعالى في سورة البقرة، فظهر النفاق بكلبات ومواقف واضحة فيها الجبن وفيها سلاطة اللسان حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر ولا يأمن أحدنا أن يذهب إلى الخلاء، فنزلت الآيات تفضحهم وتفصل موقفهم وتعظم وتعظ جميع الخلق في مواقف الخوف وتعالج خشية الموت التي تدفع لهذه المواقف:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَبَسْتِزِدْنَا النَّاسَ مِنِّيمْ لِيَقُولُوا إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آفَاطِهَا تَمَّ سَبِيلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنزَلْنَا وَمَا تَلَّسْتُمْ بِهَا إِلَّا سَيْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقَالُوا لَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ عِندَ مَا تَعْبُدُونَ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٦﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْفَانِهِمْ هَلْمْ إِنَّمَا وَلَا تَوْنُ الْبِئْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ نَظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورًا أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَسِنَّةٍ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٨﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَخْلِفُونَ عَنْ نَبَاتِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩-٢٠].

وظهر الإيمان من المؤمنين في المواقف ثابتين صادقين متذكرين ما وعدهم ربهم في سورة البقرة بضرورة التهيئة للجنة بالابتلاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّهِمُ الْبُؤْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

فنزلت الآيات تمدحهم للعالمين إلى يوم القيامة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسُلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ حَاجَتَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنِ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢١-٢٤].

وذكر تعالى نتيجة المعركة فقال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وعاقب رسول الله بني قريظة على الخيانة بالقتل والأسر بناءً على حكم سعد بن معاذ قبل وفاته ﷺ فنزلت: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا نَقَتُنُوا وَتَأْسَرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَيْتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦].

سورة الفتح

خرج المسلمون عُمَرَاً للبيت الحرام لا للحرب، فصدوا عن البيت، فأرسل رسول الله عثمان بن عفان للمفاوضة فأشيع أنه قُتل، فبايع رسول الله الصحابة على الجهاد وبايع بعضهم على الموت للشأر لعثمان ثم تبين أنه حي لم يقتل، ثم فاضوا رسول الله وصالحوه على شروط معينة رأى فيها بعض الصحابة أنها مجحفة بالمسلمين.

فنزلت سورة الفتح لتقول أن هذا الصلح فتح، حتى قال عمر أوفتح هو؟:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتْرُوكَ عَلَيْكَ وَرَثَتَكَ وَهُدًى وَإِلَى يَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نُصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ [الفتح: ١-٣].

وذكرت البيعة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَةٌ بِهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿١٨﴾ [الفتح: ١٨].

دعا رسول الله الأعراب المسلمين للخروج معه فتعللوا فنزلت الآيات: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا بِقَوْلِنَا بِالْإِسْتِغْفَارِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَلْبٌ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِدِ لِنَأْخُذُوهَا ذُرُوعًا نَنْتَعِمُكُمْ بِرِيدِوتِ أَنْ يَبْدُلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَقُوا لِيَلْ تَحْسُدُوا عَلَيْنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ آوِيٍّ بِأَسْوَاطِ النَّيْلِ وَتِلْكَ الْأُمَّةُ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَوْلَا إِيَّاكُمْ لَفِئَ بَنِي سَعْدِ بْنِ مَدْيَنَةَ لَمَّا كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا فَوَاللَّهِ لَأَكْثَرُ الْأُمَّةِ أَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتُوبْ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ أَيْضًا ﴿١٦﴾ [الفتح: ١١-١٧].

وعدهم في هذه السورة بفتح خبير: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ [الفتح: ٢١].

ذكر تعالى أن من حكم تقدير الصلح وجود مسلمين مستضعفين لا يعلمهم الصحابة بمكة لو قتلوهم خطأ سيتحرجون: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدِينِ مَعَكُمْ وَأَنْ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ [الفتح: ٢٥].

ذكر حمية قريش الجاهلية وكبرهم، بصددهم المسلمين هذا العام عن العمرة، مقابل حمية المسلمين لله ورسوله: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

وذكرهم ببدء أمر هذه العمرة وهى رؤيا رآها رسول الله أنه يطوف هو والصحابة بالبيت منهم المخلق رأسه ومنهم المقصر وهم في أمن لا يخافون من بطش قريش، فذكر أنها رؤيا حق، وأن الدين كله حق، وأنه كما سيحقق لهم هذه الرؤيا فسينصر دينه ويعليه على الدين كله: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٧-٢٨].

أشار إلى موقف في فتح مكة وضع في هذه السورة الكريمة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٤].

نزلت سورة المنافقين بسبب بعض الأحداث في غزوة بني المصطلق وبعضها قبلها

«قال محمد بن إسحاق في السيرة: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة يعني مرجعه من أحد وكان عبد الله بن أبي بن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس . حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع يعني مرجعه بثلاث الجيش ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بتيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره؟ فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

وقال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلاً»^(١).

فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا سَتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقين: ٥].

«وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري وكان أجيراً لعمر بن الخطاب وسان بن وبر قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا فقال سان: يا معشر الأنصار وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل .

ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو كفتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها فسمعها زيد بن أرقم ﷺ فذهب بها إلى رسول الله ﷺ . وهو غليم عند عمر بن الخطاب ﷺ فأخبره الخبر فقال عمر ﷺ: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه قال رسول الله ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن ناد يا عمر الرحيل» .

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم وكان عند قومه بمكان فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها فلقية أسيد بن الحضير رضي الله عنه فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله لقد رحمت في ساعة منكراً ما كنت تروح فيها فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟» زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعرز منها الأذل^(١) قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال: أرفق به يا رسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لتوجه فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً.

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا بشر بن موسى حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار: فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجرين يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعواها فإنها متنتة».

وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي عن سفيان بن عيينة ورواه البخاري عن الحميدي ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن سفيان به نحوه^(١).

فنزلت الآيات: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقين: ٧-٨].

كانت غزوة تبوك فنزلت سورة التوبة تعليقاً على أحداثها في معظم الآيات

كان الزمان زمان حر شديد وكانت قد طابت الثمار لأصحاب الحوائط - البساتين - بالمدينة وكان السفر بعيداً أبعد سفر سافره الصحابة في غزو فكان هناك بعض التناقل فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَاتِلُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيئُهُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفَّيِّرٌ ﴿التوبة: ٣٨-٣٩﴾.

بدأ النفاق يظهر بقوة، وجاءوا يعتذرون لرسول الله ويستأذونه في عدم الخروج وأذن لهم رسول الله، حتى عاتبه الله تعالى عتاباً رقيقاً فنزل: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤١﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٢﴾ لَا يَسْتَعِدُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَالِمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِدُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّابَتْ قُلُوبُهُمْ فَمَهْرَفٍ فِي رَبِّيهِمْ يَرُدُّونَ ﴿التوبة: ٤٢-٤٥﴾.

قال رسول الله لأحدهم (الجد بن قيس) هل لك في جلاد بني الأصفر فاعتذر بأنه لا يصبر على نساء الروم إذا رآهم ويخاف الفتنة! فنزلت الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذِّنْ لِي وَلَا نَفِّحْ عَلَيَّ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

كان المنافقون متناقلين عن الصلاة كارهين للنفقة فنزلت: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْفِقَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ وَلَا وَهْمٌ كَسَالِي وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَأَهُمْ كَاهُونَ ﴿التوبة: ٥٣﴾.

كانوا مرتعبين من فضح حقيقتهم فكانوا يستعوضون عن هذا بالحلف أنهم مسلمون فنزلت: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿التوبة: ٥٦﴾.

ونزل في خوفهم من فضيحتهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

كان رضاهم عن رسول الله وسخطهم عليه نابعا من المال يرضون إن أخذوا ويسخطون إن منعوا، ويعيبون عليه في قسمة الصدقة فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿التوبة: ٥٨-٥٩﴾.

جاءوا يعتذرون لرسول الله عن الخروج إلى الغزو معه ويتعللون بأعدار مختلفة ومختلفة فكان يقبل منهم ويكل أمرهم إلى الله، فسبوه وعابوا عليه هذا ووصفوه بأنه أذن يصدق كل ما يقال له فنزلت: ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنَ الْبُحَايِبِ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ٦١-٦٣﴾.

حاول بعضهم قتل رسول الله وهم أربعة عشر نفر ساءهم رسول الله لحذيفة بن اليمان بعد ذلك، وقال بعضهم كلمات مكفرة فنزل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَيَسْأَلُنَّ أَلَمْ نَأْتِ اللَّهَ بِآيَاتٍ لَوْ أَن آغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْوَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَرَائِهِ وَلَا نَصِيرَ ﴿التوبة: ٧٣-٧٤﴾.

منهم من عاهد الله لئن امتلك مالا ليتصدقن فلما أوتى بالمال بخل وأخلف وعده فعوقب بالنفاق في قلبه إلى يوم القيامة: ﴿وَمِنَهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿التوبة: ٧٥-٧٨﴾.

كان بعض أغنياء الصحابة يتصدق ببال جزيل كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان فيقول المنافقون إنه لمرائي، ويأتي بعض فقراء الصحابة بصاع - ملء كفيه - من التمر يتصدق به فيقولون إن الله لغني عن صاع هذا؛ فيعيون هذا وهذا فنزل: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿التوبة: ٧٩﴾.

جلس المنافقون في المدينة فرحين بتخلفهم عن أكرم الخلق ﷺ فنزلت: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿التوبة: ٨١-٨٢﴾.

وبعد الغزوة جاء البعض يعتذر عن عدم خروجه إما كاذبًا وإما صادقًا وقعد قوم آخرون لم يبالوا حتى بالاعتذار فنزل: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿التوبة: ٩٠﴾.

جاء قوم صادقون يريدون الخروج للغزو، ولم يكن في هذا الزمان جيوش نظامية تتكفل بتجهيز الغزاة، بل كان الشخص يجاهد بماله فيجهز نفسه بالدابة والسلاح - كما يجاهد بنفسه، وكان هؤلاء الكرام لا يملكون نفقة تجهيز أنفسهم بدواب ولا بسلاح للحرب، فجاءوا لرسول الله يطلبون منه أن

تأمر بعض طالبى الزعامة - أبو عامر الفاسق - مع بعض المنافقين فى المدينة أن يجهزوا مكاناً يكون معداً للتجسس على رسول الله والمؤمنين معه لتأتى رسل هرقل الذى كان يؤلبه أبو عامر على رسول الله ليقاتله، وليكون هذا المكان تجمعاً لأعداء رسول الله من المنافقين فأنزل تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلْنَ إِذَا أُرِدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْجَتُونَ أَنْ يَبْطُغُوا بِاللَّهِ وَبِالْحَقِّ الْمَطْهَرِ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى التَّقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَآتَتْهَا فِيهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ١٠٧-١١٠﴾.

تخلف ثلاثة من خيرة المسلمين الصادقين ثقافلاً على وجه الذنب وليس نفاقاً ولم يكذبوا على رسول الله فى اعتذارهم بل نطقوا بالحقيقة فأخروا خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَاقًّا إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿التوبة: ١١٨-١١٩﴾.

كانت تنزل السورة فيتساءل البعض على وجه الجلد - من المؤمنين - أو على وجه السخرية - من المنافقين - أياكم ازداد إيماناً بهذه السورة فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ ﴿التوبة: ١٢٤-١٢٥﴾.

كانت تنزل السورة تأمر بالجهاد فيهرب بعض المنافقين يلودون ويتسترون ببعضهم البعض، فنزلت: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ قُلُوبِهِمْ وَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿التوبة: ١٢٧﴾.

آخر سورة نزلت

تمت نعمة الله بالفتح الأعظم .. فتح مكة، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، وتم إبلاغ الرسالة الشريفة كاملة غير منقوصة قد وفى صاحبها وأتم مهمته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فنزل له نعي أجله؛ أن يتجهز بإكمال ما تبقى له من عبودية التسبيح بحمد ربه، وأن يحتتم عمله بالاستغفار تهيؤاً للقاء رب العالمين: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿سورة النصر﴾.

صلى الله عليه وسلم دائماً أبداً ما تعاقب الليل والنهار.

وهنا يتبادر سؤالان:

أولاً: هل كان يمكن أن نفهم هذه الآيات إلا من خلال معرفتنا بهذه الأحداث؟
والإجابة: لا.

ثانياً: عندما نقرأ هذه الآيات هل هي خطاب لهم فقط أم تخاطبنا نحن في كل بيئة وفي كل وقت بعد العلم بمعناها؟ والإجابة طبعاً أنها لنا وسيحتج سبحانه علينا بها يوم القيامة.
فلماذا إذا ارتبطت بأحداث محددة؟.

هذا من أجل هذا المعنى الذي قدمناه؛ أنه دين جاء للتغيير، وأنه دين واقعي، وأنه دين حي ومتحرك وفعال.

* * *

لقد خاض رسول الله والمؤمنون المواجهة بهذا الدين ينشرون نور الله كما أنزله فتستضيء به النفوس ويستنقذ به من الضلالة ويُبصّر به من العمى .. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه .. وكم أحياء الله بهم ميتاً وأخرجه من ظلمات لا نهاية لها ..

لم يصنعوا نسخة مزورة من الدين كما يصنع البعض اليوم ويحصر الدين فيما ورثه وفيما يزعمون أنهم أدوا الواجب ببلاغ ما يريد الناس سماعه لا ببلاغ وبيان ما يجب أن يعرفه الناس عن هذا الدين .. هوية وشريعة وصبغة وتوحيد وعقيدة صحيحة.

لم يهربوا من مواجهة واقعهم كما يفعل الذين لا يواجهون الناس بحجم التغيير الذي يجب أن يتغيروه.

وللناس أمام ربهم موقف لن تزول الأقدام إلا بإجابات مُرضية لرب العالمين. ورضا الناس وثناؤهم ليس هو المقياس عند رب العالمين فقد يرضون بما يسخط الله وقد يسخطون بما يرضي الله تعالى، فللناس موقف أمام رب العالمين قد يكون فيه مَنْ يعلم أشدّ حملاً ممن لا يعلم.

وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا

* * *

المقصد الثاني

وهو العبرة في شدة أخذه تعالى لأعدائه ليتعظ به من خلفهم، وبقاء العبرة والعظة الى قيام الساعة

ودخول كل واقع بعد نزول القرآن تحت هذا الخطاب على وجه فردي لكل ظالم

أو على وجه جماعي كامل وشعوب أو قري

وانظر إلى هذه الآيات والدلالة منها في غاية الوضوح لا تحتاج الى تعليق:

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]، يعنى ومثل هذا الأخذ يأخذ ربك القرى الظالمة؛ فالعبرة والعظة باقية الى يوم القيامة أن يصيب الظالم على وجه فردي أو جماعي ما أصاب الأولين، فيدخل كل واقع بعد نزول القرآن تحت هذا الخطاب.

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١١٤﴾ وَقَوْمٌ لِّزَاهِمٍ وَقَوْمٌ لُّوطٍ ﴿١١٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١١٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْهَا خَاوِصَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُهَا مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿١١٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأْتَاهَا لَا نَعْمَى الْأَبْصُرُ وَلَكِن نَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٦].

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

[السجدة: ٢٦].

﴿ وَإِنَّكُمْ لَمَمْرُونٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿٣٧﴾ وَبِأَيْتِلُّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦ - ٣٧].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١١٢﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُّوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ ﴿١١٥﴾ [ص: ١٢ - ١٥].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧].

﴿ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ وَأَوْلَاتٍ حِينَ مَنَاصِرٍ ﴾ [ص: ٣].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَّيَّرَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَصْرَبِينَ ﴿٣٨﴾ وَفِرْعَوْنَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨ - ٤٠].

﴿ وَفِي مِوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَخُودَهُ ۖ فَسَبَّدْتَهُمْ فِي
الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ
لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَمَتَوَا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ ۖ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يُبْظَرُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامِهِمْ مَا كَانُوا مُتَسَبِّرِينَ
﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ يَتِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٤٦].

﴿ وَأَسْتَكَرَّهُو وَخُودَهُ ۖ فِي الْأَرْضِ بَغْيِرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَخُودَهُ ۖ
فَسَبَّدْتَهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَتَوَيْمَ
الْفَيْكَةِ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصاص: ٣٨ -
٤٢].

﴿ ءَأَلْتَنَنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدَيْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩١ - ٩٢].

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْرَبْتَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات: ٢١ - ٢٦].

﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثَةُ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦].

وغير ذلك من الآيات في مواضع كثيرة.

المقصد الثالث

وهو سنته تعالى في تقدير الصراع بين الحق والباطل لدفع الباطل وإزالته من الحياة أو كبحته وقمعه وإذلاله لنلأ تفسد الحياة ..

وكلما ظن الباطل استقرار الأمر والقوة والقيادة له دفعه الله تعالى بالحق وقدر للحق من يقوم به وقدر للباطل من يذله ويدفعه .. ويكون هذا هو وقت إيدان الله تعالى بدورة جديدة ينتصر فيها الحق ويعلو.
وقد نص تعالى عليه في الآيات:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَنَخَذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأُولَىٰ وَمَا نُنصِفُكُمْ ﴿[الأنبياء: ١٦-١٨].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤].

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

المقصد الرابع

عَظَمَ وَجْهَ التَّرَكَّةِ الَّتِي نَحْمِلُهَا الْيَوْمَ

وَأَنَّهَا مَحْصَلَةُ جَهْدٍ وَجَمَاجِمٍ وَدِمَاءٍ وَدُمُوعٍ وَأَلَامٍ وَهَجْرَةٍ وَصَبْرٍ وَأَذَى وَجَهَادٍ

قَامَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْذُ فَجْرِ التَّارِيخِ إِلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ

خِلَالَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى السَّنِينَ الْقَرِيبَةِ ..

مع سمو التركة وأنها إرث جميع الأنبياء والقيم التي حملوها .. نحن اليوم المتحدثون باسمهم جميعاً عبر حملنا لهذا الدين، فإن تركناه استبدلنا الله تعالى بمن يحمل دينه ويمضي به.

فقد وصلنا الإسلام عبر نضال طويل خاضه الأنبياء في صراع وجهد وشهادة وصبر على الأذى ونضال خاضه الرسول ﷺ بمكة والمدينة، وما أوقع هذا التعبير من عائشة رضي الله عنها عن قيام رسول الله قالت: «بعد ما حطمه الناس»، فعن عبد الله بن شقيق قال قلت لعائشة: هل كان النبي ﷺ يصلي وهو قاعد؟ قالت: «نعم، بعد ما حطمه الناس»^(١).

فمن أراد أخذ هذا الدين فليعلم طبيعته ولتتكيف معها وليوطن نفسه على مثل هذا.

ثم إنه قد وصلنا هكذا فهو إرث ضخم؛ لقد كان كل رسول يصدق بمن قبله ويؤمن به ويبشر بمن بعده، وكانوا يؤدون الأمانة لمن بعدهم .. وفي النهاية جاءنا هذا الحمل الضخم من رسالات الأنبياء والخير الذي نشره في البشرية، وأي خير اليوم فإنما هو من أثر جهدهم، وكلهم يشهد لهذه الرسالة ويبشر بها ويأمر أتباعه لئن بعث محمد وهم أحياء أن يؤمنوا به وينصروه وأخذ عليهم الميثاق بهذا، يقول شيخ الإسلام أن هذا من بعض مقاصد إبقاء أهل الكتاب في ديار المسلمين وإقرارهم بالجزية لتضمن كتبهم الشهادة بنبوة رسول الله وبصدق هذه الرسالة^(٢).

ثم صارت هذه الرسالة مهيمنة وشاهدة على الرسالات قبلها وبقيت هي المتضمنة لذكر جميع الرسل والثناء عليهم وحفظ مناصبهم دون إفراط (غلو) كالنصارى في المسيح وأمه، ولا تفريط كاليهود في شأن المسيح عليه السلام وأمه.

لقد صار اليوم الإسلام هو المتحدث باسم جميع الأنبياء، ويشهد لهم يوم القيامة بأداء أماناتهم ورسالاتهم، وما نحمله اليوم من هذا الإرث هو إرث النبي محمد ﷺ وصحبه وجميع الأنبياء قبله، وجهد من بعده من العلماء والمجاهدين والأئمة العدول والأمة المجاهدة بشهادتها وكرامتها ومُنْفِقِيهَا.

فالإرث ضخم والتركة ثقيلة والتشريف في غاية السمو، وأداء الأمانة لا يكون إلا بسلك نفس الطريق وعدم تزوير دين الله تعالى.

فقد قال تعالى بعد ذكره للكتب المنزلة قبل القرآن:

(١) صحيح مسلم، ج ١، ص ٥٠٦، (بعد ما حطمه الناس) قال النووي: قال الراوي في تفسيره حطم فلاناً أهله إذا كبر فيهم كأنه لما حمله من أمورهم وأنقالهم والاعتناء بمصالحهم صبروه شيخاً محطوماً والحطم كسر الشيء اليابس.

(٢) راجع مجموع الفتاوى.

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى بعدما قص قصص رسله السابقين :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء، الآية ٩٢].

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ افْتَدَتْهُ قُلُوبٌ لَّا أَسْمَأُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

[الأنعام: ٩٠].

وقال تعالى مخاطبا أهل الكتاب بعد ما قص طرفا من انحرافاتهم :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرْبٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ

جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى عموماً في مواجهة هذه الدعوة لمشركي العرب :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ

وَلَا تَفْرُقُوا فِيهِ كَبْرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَّا لِيُحْجِبُوا إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾

[الشورى: ١٣].

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمُوهُ إِلَّا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الاحقاف: ٩].

وروى مسلم في صحيحه: «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله فجعل الناس يطيفون به يقولون ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة فكنت أنا تلك اللبنة»^(١).

وروى أحمد في مسنده «عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة»^(٢).

فهو بناء واحد أتمه محمد ﷺ وتحدث هو وأتمته باسم هذا البناء كله الى قيام الساعة وهذا من ذكره وشرفه وشرف أتمته.

صلي الله عليه وسلم دائما أبدا ما تعاقب الليل والنهار . .

(١) صحيح مسلم، جـ٤، ص ١٧٩٠.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، جـ ٣، ص ٩.

المقصد الخامس

وهو الارتباط بين الواقع البشري .. من ذنب ومعصية وانحراف أو ساعة واستقامة
وبين الواقع الكوني من حوله ..

وكذلك ارتباطا له بالواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للفرد وللمجتمع

والعامل المشترك دائما فيه بين الكفار قديما وحديثا أنهم جميعا يجهلون، وإذا ذكروا به ينكرونه .. بل
ويضيفون اليه الاستهزاء به والسخرية منه حتى يقع بهم! خاصة في هذا الزمن الذي يتبجح بالعلم الذي
أفاض به ربه تعالى عليه .. ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فقال تعالى عموما عن أخذهم بظواهر كونية سماوية بصيحة أو صاعقة، أو أرضية بخسف أو
غرق - وقد يفسره الكفار بظواهر كونية محضة كما يحدث في واقعنا المعاصر من المتعلمين الجهال - وربط
هذا بالواقع العقدي والخُلقي واختيار والتزام منهج الله تعالى أو التخلي عنه خلال التاريخ البشري:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَكِمُودَا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّنْ
مَّسْكِنِهِمْ وَرَبَّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فصدَّهم عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ
وَفِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا
بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ
أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [والأنبياء: ٤١]

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهَلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُرًّا وَرَأْسًا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا
الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ
عَنَّهُمُ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنبِيْهُ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذْنَا مِنَ النَّاسِ مَا نَشَاءُ إِذَا أَخَذْنَا
الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذْنَاهُ لَشَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَاءِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِمَّنِ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي
الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢٢].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى السُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقال في الواقع الاقتصادي للأمم وتبادل الضيق والسعة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيَتِيمٍ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَلَمْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا صَاحِي وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُذُنُّوهُمْ وَفَطَّيْعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٩﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿[الأعراف: ٩٤-١٠١].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَا لَهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴾ [الأنعام: ٦٥-٦٦].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعْتَةً فإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَاقْطِعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٤٢-٤٥].

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يُقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيُقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرِّدْكُمْ قُوَّةَ إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أَتَجْرِمِينَ ﴿[هود: ٥٠-٥٢].

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِٰمِلِيهِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هَنَأْتُمْ عَلَيْهِ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٤٧﴾ وَرُزُوعٍ وَتَحْلِ طَلْعِهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِثْلَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرْدِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِٰمِلِيهِ ﴿[الشعراء: ١٤١-١٥٠].

وقال في شأن الواقع السياسي والأمني مع البعد الاقتصادي:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقٌهَا رَعْدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿[النحل: ١١٢-١١٣].

وقال تعالى في الشأن الفردي للفرد في إيمانه أو كفره وطاعته أو معصيته وارتباط هذا برغده وأمنه أو سلب النعم: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ

اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا قُلَّ مِنْكَ مَا لَّا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصَبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيط بِشَمْرُوهٍ فَأُصْبِحُ بِقَلْبِكَ كَفِيَّةً عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَغْتُنِي لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نَّوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا هُوَ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأُصْبِحُ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿الكهف: ٣٢-٤٥﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجنانية: ٢١-٢٢].

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ [مريم: ٧٥].

وقال تعالى في شأن وضوح هذه الحقيقة في نفس المؤمن:

﴿ يَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ تُحْمِلُوا ظُهِرِي فِي الْأَرْضِ فَمَن يَبْصُرْنَا مِنْ بِأَيْسَ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٢﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٢٩-٣١].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ن: ٣٦-٣٧].

وعن الجزاء السياسي والكوني يقول سبحانه:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وغير هذا من الآيات كثير لمن تتبعه

وأخيرًا:

لنختم بهذه الفقرات للأستاذ سيد قطب عن طبيعة هذا الدين والمجاهدة به لتصحيح الواقع الموجود فيه أتى كان هذا الواقع ومتى كان .. يقول رحمه الله:

«هذا المنهج الإلهي، الذي يمثله "الإسلام" في صورته النهائية، كما جاء بها محمد ﷺ، لا يتحقق في الأرض، وفي دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله. لا يتحقق بكلمة: (كن) الإلهية، مباشرة لحظة تنزله. ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه. ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب.

إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر. تؤمن به إيمانًا كاملاً، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك .. تتجاهد الضعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى .. وتبلغ - بعد ذلك كله - من تحقيق هذا المنهج، إلى الحد الذي تطيقه فطرة البشر، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي. على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً، ولا تغفل واقعهم، ومقتضياته في سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهي .. ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة. وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة .. بقدر ما تبذل من الجهد. وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان وللمقتضيات الأحوال. وقبل كل شيء .. بمقدار ما تمثل هي ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته ترجمة عملية في واقعها وسلوكها الذاتي».

ويقول: «على أنه من الملاحظ الواضح أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية، يصلح النفوس البشرية، ويصلح الحياة البشرية .. نقول هذا لا لنعلل به مشيئة الله - سبحانه - في جعل الأمر على ما جعله. ولكن لنسجل - فقط - ملاحظة واقعية لآثار هذه المشيئة في حياة العباد.

ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان. مجاهدتهم بالقلب بكرهه باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام. ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان. ورفض باطلهم الزائف، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام. ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم! .. وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء والأذى، والصبر على الابتلاء والأذى، والصبر على الهزيمة والصبر على النصر أيضاً - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة. ثم يثبت ولا يرتاب، ويستقيم ولا يتلفت، ويمضي في طريق الإيمان راشداً صاعداً.

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس؛ وتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن، وتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة. ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة.

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾.

وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح، وتسترخي معه الهمة، ويتلفها الرخاء والطرادة، ثم تأسن الحياة كلها بالركود. أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها. كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء!.

فهذه كذلك من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. لقد جعل صلاح هذه الفطرة في المجاهدة لإقرار منهج الله للحياة البشرية، عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية كذلك.

ثم إن هذه المجاهدة ومن يصاحبها من الابتلاء، هي الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف - بعد تمحيص النفوس - ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين، ومن ضعاف النفوس والقلوب، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان، وتتعرض للابتلاء، وتتكشف فيها خفايا النفوس، كما تتميز فيها الصفوف، تحت مطارق الابتلاء ومشقة التجربة، ومرارة الآلام.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة، وهو يعقب على أحداث الغزوة. فيقول لها، رداً على سؤال المسلمين: ﴿أَنْ هَذَا؟﴾، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ .. ثم يعقب على هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنَجُّمِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي يَدِ اللَّهِ وَفِي يَدِ اللَّهِ مَوَازِينُ﴾، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾، كل ذلك ليستقر في حسهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم في تمثيل حقيقة الإيمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاتهم في الغزوة .. فإنه كذلك كان خيرهم في النهاية بفضل الله عليهم، وتجاوزه عن تقصيرهم، واتخاذ نتائجه مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم، وتمييز صفوفهم .. وكله خير لأنفسهم ولحياتهم في نهاية المطاف.

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة التي نرجوا أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان .. تكملة ضرورية لها لا بد من بيانها كذلك:

إن كون هذا المنهج الإلهي متروك تحقيقه للجهد البشري، في حدود الطاقة البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في شتى المداخل، وشتى البيئات .. لا يعني استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر، وانقطاعه عن قدرة الله وتدبيره، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره .. فتصور الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلامي.

ولقد بينا فيما سلف أن الله - سبحانه - يساعد من يجاهد للهدى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم، وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾.

وهذان النصفان يوضحان لنا العلاقة بين الجهد البشري الذي يبذله الناس، وعون الله ومدده الذي يسعفهم به، فيبلغون به ما يجاهدون فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح.

فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية، وبدونها لا يبلغ "الإنسان" بذاته شيئاً، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها ويجاهد في الله ليلبغ رضاه.

وقدر الله - مع ذلك كله - هو الذي يحيط بالناس والأحداث، وهو الذي يتم وفقه ما يتم من ابتلاء، ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله - سبحانه - أن يعلمها للجماعة المسلمة. وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب الهزيمة - من عملها - ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء كله، ومن وراء النصر والهزيمة: وعن تدبيره كذلك: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تُحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلِيَعْرِفَهُمْ سِنَّتَهُ الشَّامِلَةَ. ومردها في النهاية إلى مشيئته الطليقة وقدره النافذ من وراء الأسباب والوقائع: ﴿إِن يَمَسُّكُمُ فَجٌّ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجٌّ مِثْلُهُ ۗ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ لِيُمَجِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ۗ

وإذن فهو - في النهاية - تدبير الله ومشيئته وقدره، ل يتم ما يريد من وراء الأسباب والأحداث. وهو الأمر الذي لا يسأل عنه سبحانه: لأنه شأنه الإلهي، الذي لا يسأل عنه .. وهذه هي حقيقة الإيمان الكبرى التي لا يتم في النفس إلا باستقرارها فيها، واطمئنانها إليها .. وهي التكملة التي لا بد منها لما قررناه في هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين وطريقته .. بلا تعارض بين طرفي هذه الحقيقة في حسن المسلم، الذي يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين، كما أنزلها الله. ولا يعارضها بتصورات ومقررات ليست مستقاة من كتاب الله^(١).

هذا هو القصص وهذه هي رسالته ..

والله تعالى أعلم وأجل وأحكم
وصلى الله وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد وعلى آله وصحبه وسلم